المكتبة النحوية

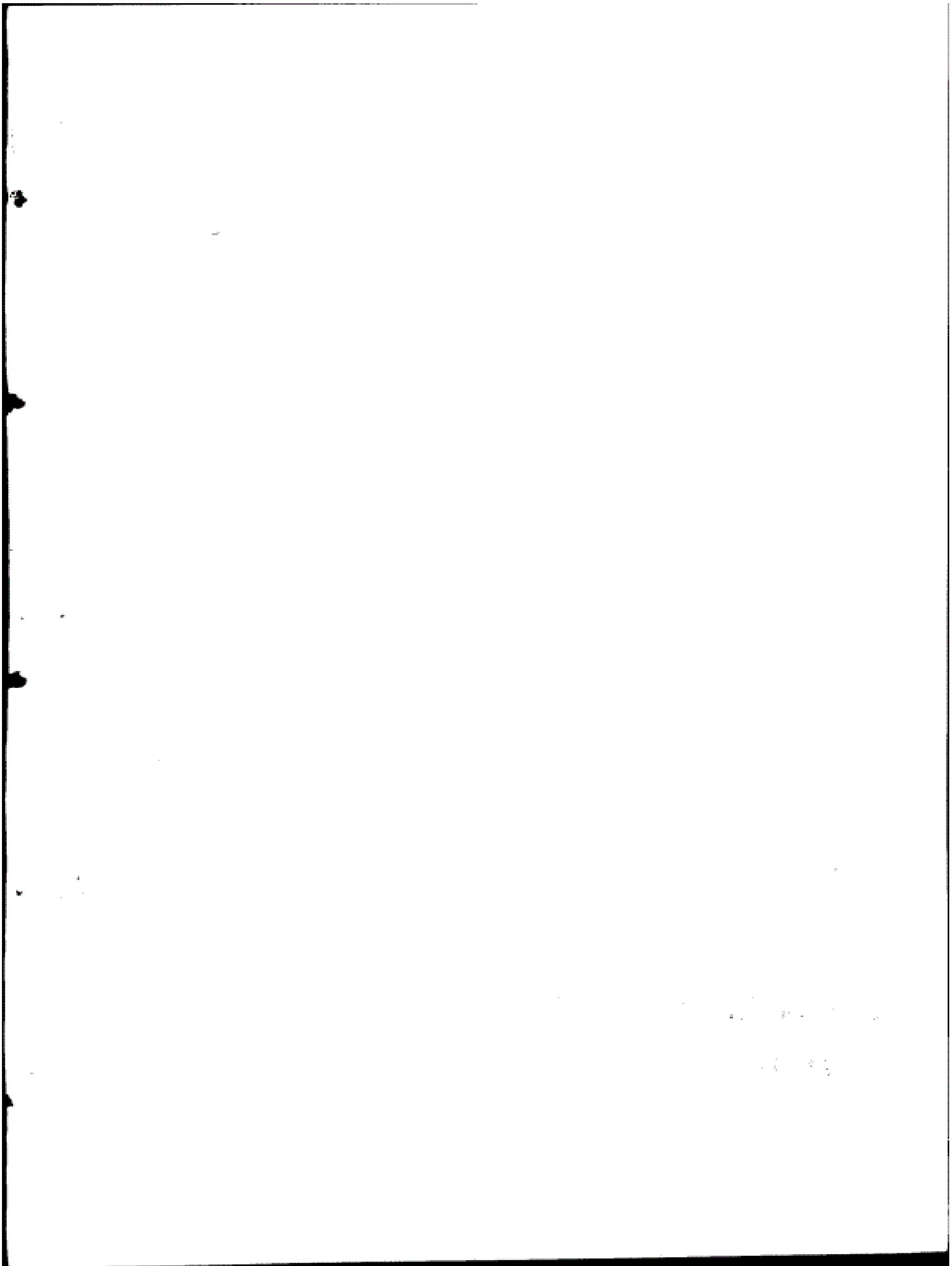
الدراسات

٣

تاريخ النحو العربي

حتى أواخر القرن الثاني الهجري

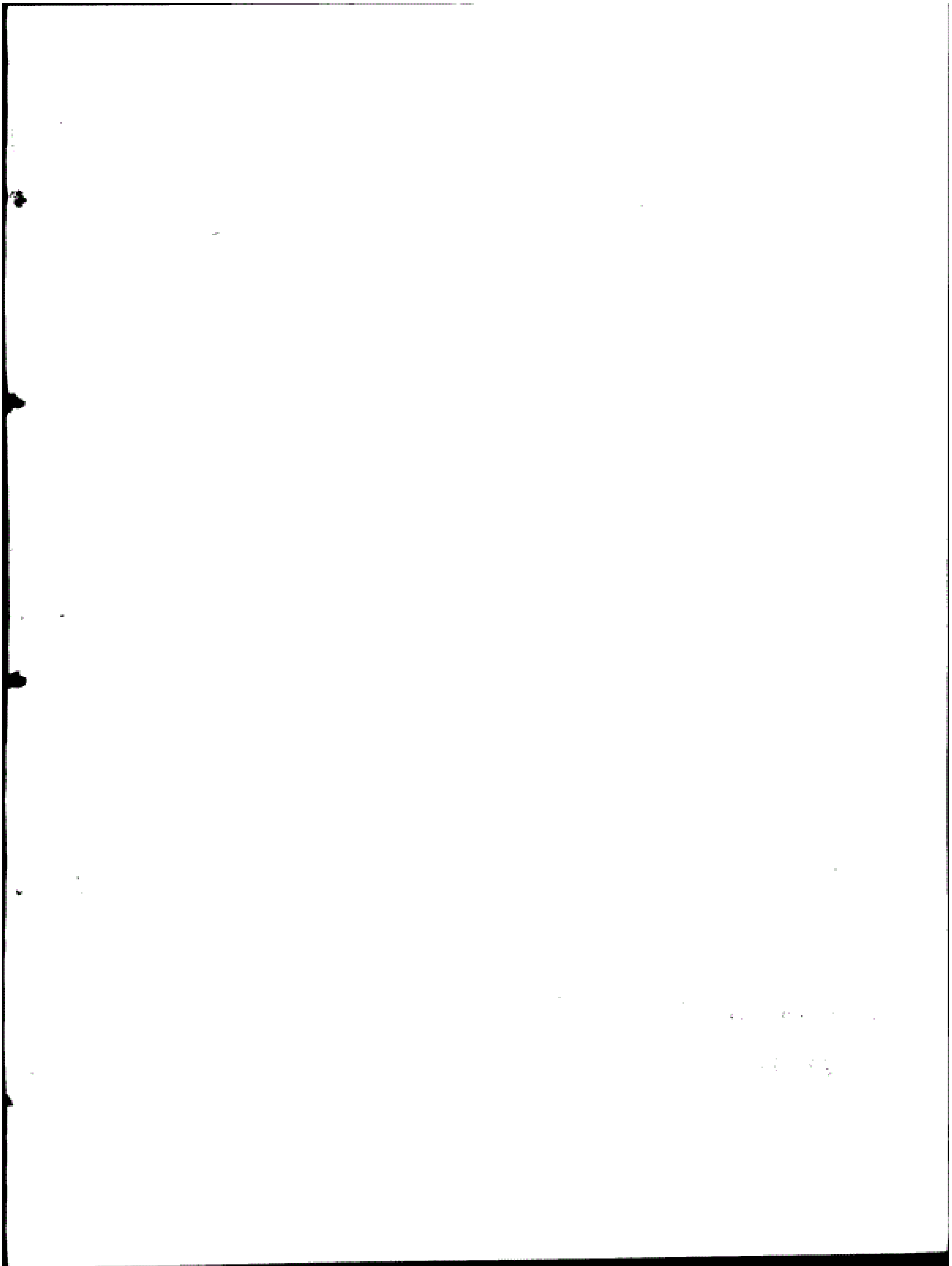
الدكتور علي أبو المكارم



الطبعة الأولى ١٣٩١ — ١٩٧١ م

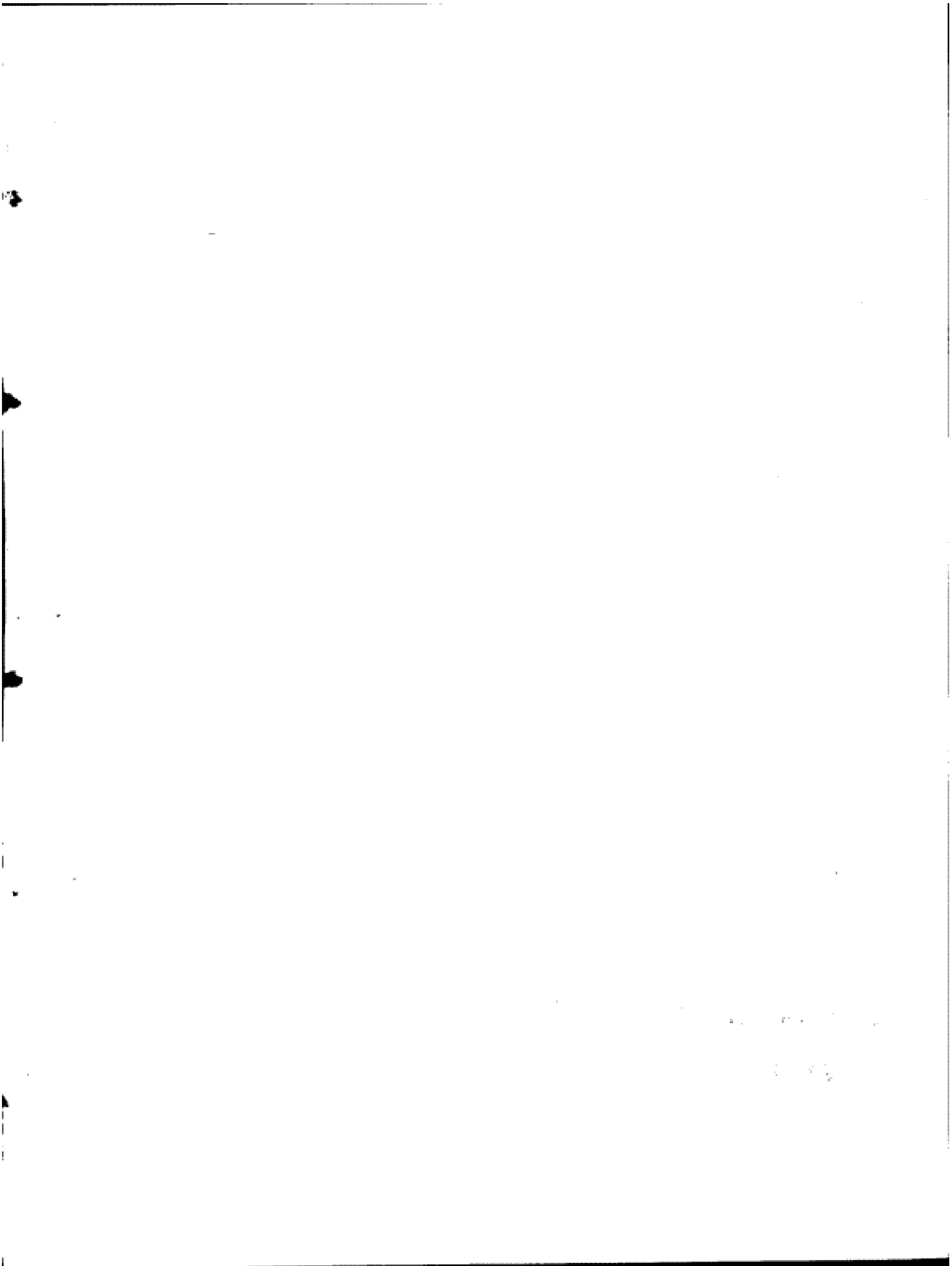
رقم الإيداع بدار الكتب ٥٠٢٥ لسنة ١٩٧١

القاهرة الحديثة للطباعة
ت ٩٣٤٣١٠



تاريخ النحو العربي

الجزء الأول



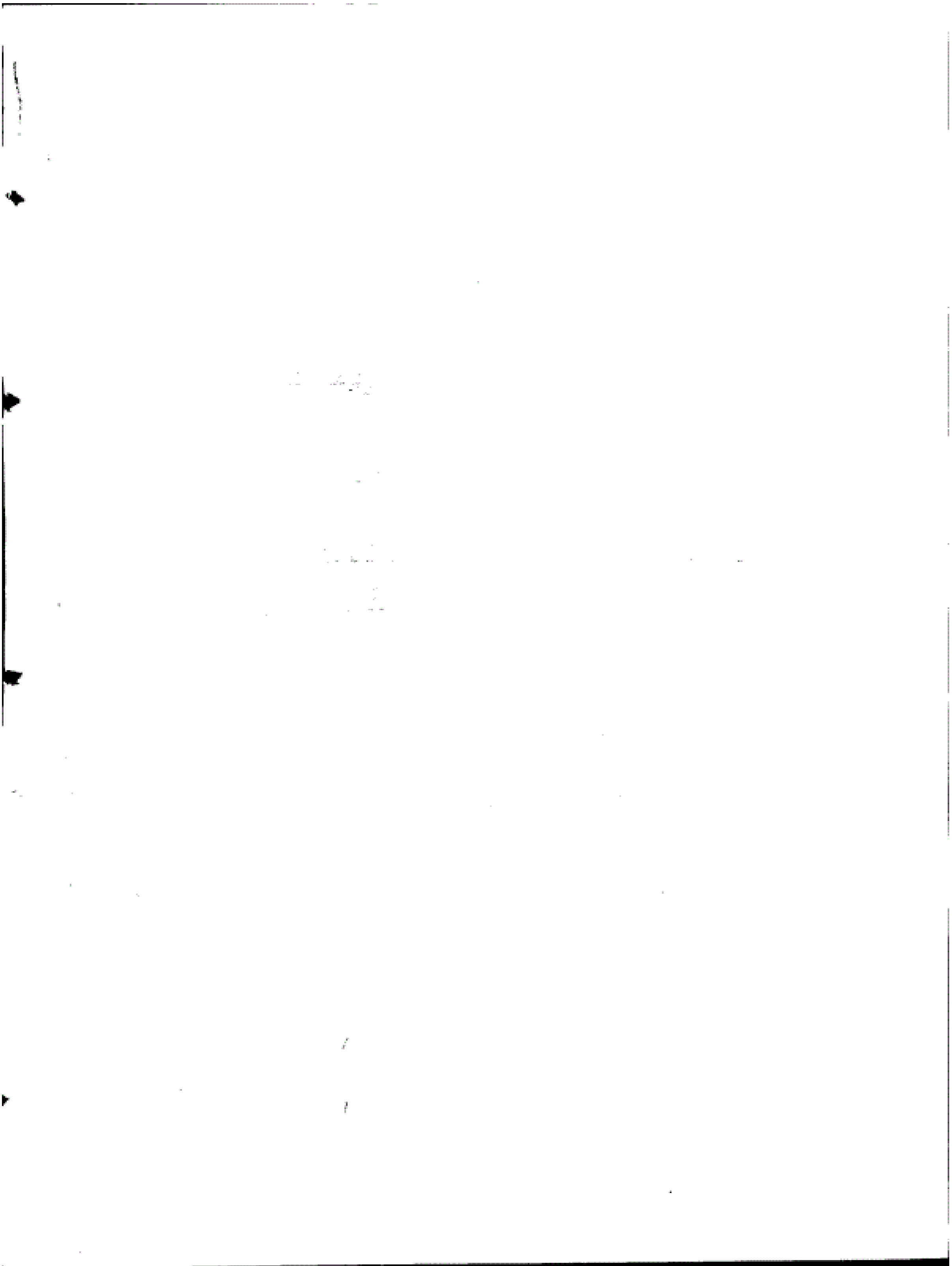
الإهـداء

إلى صديقى الأثيرين

على عشرى زايد و أحمد حمدى يوسف

تحية لشجاعتهما الباهرة التى جددت الأمل فى لحظات رانت فيها على القاهرة الحبيبة ظلمات الأسى واليأس .

على



بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدمة

النظر فى التاريخ ليس التفاتا إلى الماضى وحده ، هذه إحدى الحقائق الواضحة الدلالة ، المؤكدة الثبوت عند عدد جد عظيم من المفكرين القدامى والمعاصرين ، ذلك أن الحاجة إلى دراسة الحقائق التاريخية تستمد دوافعها من أسباب متعددة ، على رأسها ثلاثة أسباب رئيسية :

السبب الأول الرغبة فى استكشاف ما كان على نحو ما كان ، وهو النظير المؤكد لاستكشاف ما سيكون قبل أن يكون ، وكلاهما صورة لتطلع الإنسانى لرؤية الآفاق غير المنظورة ماضيا أو مستقبلا.

السبب الثانى محاولة تفسير المظاهر مادية أو غير مادية .

والسبب الثـالث تحليل الأفكار والأحكام .

وإذا كان السبب الأول يصدر عن ذلك الإحساس التقليدى الذى يذكى دائما الفضول الإنسانى إلى المعرفة ، فإن السببين الآخرين لا يصدران عن رغبة تنتمى إلى مايشبه الغريزة ، بل تمتد عن يقين على ينبع من الإدراك العقلى لقيمة الماضى فى الحاضر ، وإمكانات تأثيره التى لا تحد فى تشكيل المستقبل ؛ وذلك أن تفسير الظواهر وتحليل الأفكار والتثبت من الأحكام تتضمن دائما وبالضرورة عناصر إيجابية التأثير فى الكائن الانسانى ، وحتى فى جوانبه السلبية تتميز بتأثيرها الإيجابى ، إذ إن سلبيات الماضى سواء فى ظواهره أو أحداثه أو علاقاته إحدى الدوافع العميقة الأثر فى مسيرة الكائن البشرى : حيث تحدوه دائما فى

محاولته الدءوب نحو بناء شكله الأمثل مادياً وروحيا ، والإنسان دائما فى حاجة إلى أن يحدد مكوناته الأساسية ، ويحلل كل ماله تأثير فى هذه المكونات ، وليس من شك فى أن خبرات الأجيال المتتابعة تعيش فى كل جيل ، ومعنى هذا ببساطة بالغة أن الماضى يحيا فى الحاضر ، سواء شئنا ذلك أو أبيناه ، ومن ثم فإن الذى يجب أن يفعله الفكر الإنسانى ألا يبدأ برفض الحقائق تحت أى ظروف ، بل بتحليلها لمعرفة عناصرها الإيجابية التى يجب الحفاظ عليها ، بتطويرها وتنميتها وجعلها أقدر على الوفاء بالحاجات الإنسانية والاجتماعية والطبيعية المتغيرة ، وعناصرها السلبية التى ينبغى التخلص منها بتكوين الظروف المفضية إلى ذلك، تستوى فى ذلك الظروف المادية وغير المادية الإنسانية وغير الإنسانيه أيضاً ؛ إذ إنه بدون هذا التحليل سوف نجد أنفسنا مدفوعين للانضواء تحت أحد لواءين يرفعهما مثقفو عصرنا ، وشعار أولهما أن بعيش الحاضر فى الماضى إذ ليس فى الامكان أبدع مما كان ، وشعار ثانيهما أن الماضى قد مات فلنعد أنفسنا للحياة فى المستقبل .

وواضح تماماً عند التحليل العلمى أن كلا من هذين الموقفين المتناقضين موقف غير علمى قبل أى اعتبار آخر ؛ لأنه يغفل الحقائق الأساسية فى وجودنا الإنسانى والاجتماعى ، وأكاد أقول ، والطبيعى أيضا، وعلى رأس هذه الحقائق أن المستقبل يتشكل من خلال الحاضر ، وأن الحاضر قد تشكل بالفعل من خلال علاقات الماضى التى نسجت أبعاده وحددت آفاقه وبلورت خصائصه .

ووفقاً لهذه الحقائق كلها نجد أنفسنا فى حاجة دائماً إلى النظر فى الماضى وتأمله ، لا لكى نهرب من التصدى لمشكلات الحاضر ، وإنما ليكون هذا النظر فيما كان معيناً لنا على فهم ما يكون ، ووفقا لهذه الحقائق أيضا سوف نظل فى

حاجة في المستقبل إلى النظر في الماضي وتأمله ، لا ليصرفنا هذا النظر عن المستقبل وإنما ليكون سبيلنا إلى تشكيل المستقبل معتمدا على ركائز لا تتزعزع من الوضوح الفكري ، بحيث لا تتصادم صورة المستقبل مع التفكير العلمي ، الذي يقطع بأن أية محاولة لبناء حضارة إنسانية يجب أن تراعي الظروف الموضوعية التي تحدد مجال هذه الحضارة ، فكراً ومادة ، إنساناً ومجتمعاً : وأن أية محاولة لاصطناع ظروف غير قائمة بل متوهمة تعني قفزة في فراغ ، وليست حلقة في سلسلة البنيان الحضاري ، أي أن نقطة البدء العلمية لبناء المستقبل يجب أن تبدأ من الفكر ، ونقطة البدء الصحيحة لتطوير الفكر الإنساني لا تكون بافتعال التجارب أو نقلها ، ولا بتزييف المقدمات وطمس معالمها ، ولا باستلهام الشعارات مهما كان مصدرها ، وإنما تكون بشيء محدود هو تحليل الماضي لمعرفة أبعاد الحاضر وآفاق المستقبل .

* * *

من هذا المنطلق ندرس تاريخ النحو العربي ، ليس بقصد الوقوف على الظروف المختلفة التي أثرت فيه نشأة وتطورا فحسب — وإن كان ذلك هدفاً جليلا يستحق عناء قصده بالدرس والتحليل — وإنما لنحاول أيضا أن نحقق من هذه الدارسة هدفين أساسيين .

الهدف الأول الوقوف على المعطيات الأصيلة لتراثنا اللغوي ، ولعل بين أقرب العلوم اللغوية التي تتيح دراستها تحقيق هذه الغاية علم النحو ، إذ إن اعتباره دراسة لنظام الجملة يتيح للباحثين فيه والدارسين له إمكان النظرة الشاملة التي لا تتيحها بعض علوم اللغة الأخرى ، كعلم الأصوات ، أو الصرف ، أو المعاجم . ثم إن علم النحو فضلا عما يتيحه من النظرة الشاملة ، إلى حد ما ، إلى التركيب اللغوي

كان أسبق ظهورا من غيره من علوم اللغة ، ومن ثم أثر منهجه الخاص فى مناهج غيره من فروع البحث اللغوى ، بحيث يمكن من خلال تحليل تاريخ النحو ومعرفة الخصائص المميزة لمناهج البحث فيه أن نقف على عدد من الأصول التى كان لها أثرها فى بحوث اللغة عند العرب ، سواء فى نشأتها أو فى تطورها .

والهدف الثانى أن يكون إدراك هذه المعطيات نقطة البدء فى المحاولة الضرورية لتطوير هذا التراث بما يتفق مع الواقع اللغوى المتغير ، ومما لا شك فيه أن إغفال الخصائص الأصلية للبحوث اللغوية عند العرب شبيه بإهمال الظواهر اللغوية للعربية الفصحى ، فى أن كليهما معا يسلم بالضرورة إلى الخطأ فى تشكيل ظواهر اللغة أو فى تفسير نتائج البحث ، ومن ثم فإنه ينبغى التعامل مع التراث اللغوى باعتباره مقدمة لأية محاولة جادة تهدف إلى تطوير العربية الفصحى، وتسعى إلى تحقيق أفضل السبل فى المعالجة العلمية لمستوياتها المختلفة .

وبهذا الإدراك تتسق دراسة تاريخ النحو مع سائر صور النتاج الحضارى وأشكاله ومن ثم فان تركيز الضوء على صورة بعينها من صور هذا النتاج، أو فى شكل بذاته من أشكاله، لا يكون منعزلا عن سائر الصور والأشكال ، فيقع فى خطيئة تجزئة الواقع الإنسانى والاجتماعى وتمزيقه ووضع الفواصل المنظورة أو غير المنظورة بين مجالاته ، وإنما على العكس من ذلك . يستفاد فى تجلية جوانب الصورة الجزئية وكشف غوامضها بتحديد علاقاتها بغيرها من الصور الجزئية التى تعد — معها — الوحدات الأساسية التى تتكون منها الصورة الكلية والشاملة للنتاج الحضارى ، وبذلك تتسم العلاقة بين الجزء والكل بالعطاء المتبادل ، ويكون الموقف فى التحليل العلمى للحضارة كلها متسقا مع الواقع العلمى فى بناء الحضارة ذاتها .

* * *

وليس هذا أول كتاب يدرس تاريخ النحو العربى ، فثمة كتب عديدة تناولت هذا الموضوع؛ إما عرضاً فى ثنايا غيره من الموضوعات ، أو قصدته مباشرة بالبحث والدراسة . وحسب القارىء أن يعود إلى الفصل الأول من الباب الأول من هذا الكتاب ليقف على الكثير فى هذا المجال ، وهو على كثرته بعض من كل ، إذ قصد به التمثيل إلى أساليب التناول وطرق التعامل مع المادة العلمية قبل أى اعتبار آخر ، ولكن هذا الكتاب — فيما أرجو — أول محاولة «حضارية» لدراسة تاريخ النحو العربى ، ولعل القصد بالمحاولة الحضارية كما نأمل أن يتضح للقارىء من خلال متابعته لفصول هذا الكتاب — يتحدد فى الالتزام العلمى بكلية الكيان الإنسانى من ناحية ، وتكامل الإنسان مع البيئة الاجتماعية والطبيعية من ناحية أخرى. وسيرى القارىء أن هذا الالتزام قد أسفر عن العثور على مفتاح جديد لإعادة تشكيل الحقائق التاريخية فى هذا المجال كما فى غيره من مجالات العمل الحضارى ، وهو دور المفاهيم الدينية المنبعثة عن الإسلام فى إعادة صياغة الإنسان والمجتمع ، فكراً ومادة ، وهو الدور الذى أغفلته ، عن قصد أو عن غير قصد ، الدراسات السابقة .

والخطة الكاملة لهذا الكتاب هى إعادة دراسة تاريخ النحو العربى منذ نشأته حتى العصر الحديث ، وهى تتناول مدارسه ومناهجه وأعلامه ومؤلفاته ، ولكن دون أن تفترض سلفا قيام مدارس معينة أو مناهج محددة ، ومن غير أن تقع تحت سيطرة الأفكار السائدة أو الموروثة عن شخصية من الشخصيات أو مؤلف من المؤلفات . وليس ميسوراً فى ظل هذه الخطة أن يصدر الكتاب كله دفعة واحدة ؛ إن معنى هذا الانتظار سنوات طوال حتى يتم استكماله على نحو ما أشرنا من مراحل خطته . ولذلك فإننا سنحاول أن يصدر هذا الكتاب فى شكل أجزاء متتابعة ، على أن يختص كل جزء منها بمرحلة بعينها .

والجزء الذى بين أيدينا هو الجزء الأول من هذا الكتاب ، وهو يعالج النحو منذ نشأته الباكرة حتى الخليل بن أحمد ، فهو يتناول قرنا من الزمان عميق الأثر شديد الخطر ، إذ فى خلاله تحدد موضوع النحو وميادين بحثه وأساليب بحثه أيضاً ، أو بتعبير آخر صار النحو علماً له قواعده المنظمة وأصوله المنضبطة ، وهذه الفترة لم توضع فيها كتب ولم تتناولها دراسات ، غير أن العديد من الكتب والدراسات تناولت موضوعات جزئية فيها ، كدور أبى الأسود مثلا ، أو دور الخليل . ولقد رجعنا إلى هذه الكتب والدراسات ، وأفدنا ما يمكن إفادته منها ، ولها على أية حال فضل السبق إلى طرق جزئيات فى موضوع كلى ، وليس من شك فى أنها كانت خطوة فى الإتجاه ، وإنا لنأمل أن يكون هذا الجزء بدوره خطوة تالية فى المحاولة التى لابد منها لإعادة تصحيح الاتجاه .

ويتكون هذا الجزء أساسا من بابين ، يسبقهما تمهيد وتقفوهما خاتمة :

أما التمهيد فقد اختص بدراسة مفهوم « التفكير النحوى » وعلاقة نشأة النحو بمناهج البحث فيه ، وتحديد الأسس العامة لهذه الدراسة التى تحاول فيما تحاول إعادة صياغة التاريخ .

وأما الباب الأول فقد قصد إلى دراسة نشأة التفكير النحوى ومناهجه ، وقد درسنا هذه القضية على مستويين :

فى المستوى الأول سردنا الإشارات والأقوال التاريخية التى تناولت هذا الموضوع ،

وفى المستوى الثانى حللنا موضوعيا الظروف التى شكلت بتضافرها الحاجة الملحة إلى نشأة التفكير النحوى وأصداءها فى تحديد المعالم الكلية لهذا التفكير .

وأما الباب الثانى فقد تناول بالدراسة تطور التفكير النحوى منذ تلاميذ أبى الأسود إلى وفاة الخليل . وكان لابد من تقسيم هذه المرحلة بدورها إلى فترتين ،

فى الفترة الأولى ، التى كانت بمثابة مرحلة انتقال من تلاميذ أبى الأسود إلى ما قبل الخليل بن أحمد ، حددنا دور كل جيل من الأجيال التى تلت أبا الأسود فى البحث النحوى ، والإضافات التى قدمها إليه ، ومظاهر التغير التى طرأت عليه .

وفى الفترة الثانية التى كانت إلى حد ما مرحلة استقرار للأفكار وبلورة للاتجاهات تناولنا الدور التاريخى الذى كانت كافة الظروف تكل إلى الخليل بن أحمد القيام به والقدرة عليه .

وفى الخاتمة عرضنا لأهم ما ينبغى الإشارة إليه فى مثل هذه الدراسة الجديدة ، ولم يكن ذلك كما جرت العادة عند المؤلفين بتحديد النتائج التى أسلمت إليها بل كان بوساطة ذكر الركائز الكلية التى تمد كافة النتائج متفرعة منها ومأخوذة عنها .

* * *

بقيت فى نهاية هذه المقدمة كلمة أخيرة ، فإن هذا الكتاب يطبع وأنا بعيد عن القاهرة ، ولقد كنت أظن أن المؤلف وحده هو الذى يقرأ عادة من الذاكرة حين يصحح تجارب كتابه ، ومن ثم يغفل عن تصحيح الكثير من الأخطاء ، لذلك حين وكلت إلى صديق عزيز الإشراف على طبع هذا الكتاب حسبت أنه سوف يخلو من الأخطاء المطبعية ، ولكنى لم أدرك أن الصديق بدوره مثلى قادر على قراءة أفكارى أكثر من قراءة ما تقدم إليه المطبعة من تجارب ، وهكذا سيجد القارىء أثر ذلك فى صفحات هذا الكتاب ، وإنى إذ أستميحه عذراً فيما وقع من أخطاء ، آمل أن يكون بينى وبينه من الود بقدر ما يسمح له بالتجاوز عما وقعنا فيه معا ، أنا والصديق .

علی أبو المكارم



تمهيد

التفكير النحوى : بين النشأة والمنهج

إلى أى مدى يتصل منهج البحث النحوى بنشأة الدراسات النحوية ؟ أو بتعبير آخر : هل تتصل نشأة النحو بما اتخذه النحاة من مناهج فى دراستهم لظواهر اللغة التركيبية ، وتقعيدهم لها ؟ .

إن الإجابة المجردة على هذا السؤال تحتمل كلا من السلب والإيجاب ، وإذا احتملت هذين الطرفين المتناقضين فقد يكون من غير المجدى أن نقف عند نشأة النحو ، لنتناول بالتحليل ما أحاط بها من ظروف ، وماتشير إليه من دلالات أو تلمح إليه من ظواهر ، ثم لنتخذ من تحليلنا لها نقطة بدء فى دراسة مناهج النحو فى نشأتها وتطورها ، وذلك لأن تحليل هذه الظروف قد لايرتبط بالمنهج ، ودراسة ظواهر تلك النشأة قد لاتتصل بما درسه المنهج من ظواهر ، والوقوف عند تلك القضايا قد لايلقى مزيدا من الضوء على ماتثيره قضايا البحث النحوى من التزام منهجى ، بحيث تعد تطبيقا لذلك الالتزام لا أصلا ينفر من الخضوع لقواعده، ومن ثم تصبح كل ماتتصف به هذه الدراسة من قيمة نابعة من شىء غير الاتصال المباشر بحور موضوعنا ، ويكون من الحتم طرحها دون أن نتخذ منها معبرا نخطىء به السبيل .

ولكن الإجابة المجردة شىء يختلف - إلى حد بعيد جدا - عن الإجابة الموضوعية التى تنبع من ملاحظة كل الظروف والملابسات التى صاغت أبعاد الموضوع وشكلت أطرافه ، ذلك أن اتصال مناهج البحث النحوى بنشأة هذا البحث، وبما صحب هذه النشأة من إثارة لبعض القضايا اللغوية ، وإشارة إلى بعض الظواهر التركيبية ، ليس مجرد افتراض تحتمل الإجابة عليه السلب كما تحتمل الإيجاب، بل

أمر واقع يؤكد عمق الاتصال بين هذه النشأة وذلك المنهج ، إذ ألمح النحو ـ منذ نشأته — إلى كثير من ظواهر مناهجه ، بحيث إذا تتبعنا هذه النشأة أمكن ـ إلى حد بعيد ـ أن نتلمس البذور الأولى النامية ، التى كونت بعد تطورها هيكل البحث النحوى وقضاياه جميعاً .

على أن دراسة هذه النشأة ـ لكى توضع فى مكانها الصحيح ،وتثمر ما نرجوه منها وبها ـ يجب أن تتبع القواعد الأساسية للمنهج العلمى ، إذ ينبغى أن يكون هدفنا أن نستعيد بطريقة عقلية خالصة أحداثا تاريخية مضت ، وأن نتصور فى الذهن هذه الأحداث وهى تجرى فى اطراد ، ولذلك ينبغى أن نلتزم بقواعد المنهج الاستردادى الذى يدرس التاريخ ، ويحلل أحداثه ؛ وأولى هذه القواعد أن أحداث التاريخ لا يمكن أن تتكرر ، فهى وقائع حدثت مرة واحدة وإلى الأبد ، وماذلك إلا لأن التاريخ يقوم على الزمان ، وأول خاصية من خصائص الزمان هى عدم قابلية الإعادة أو التكرار « Irréversibilté » ونتيجة لذلك فإنه لابد من قدر من التحليل لقصد الأحداث التاريخية [illegible] ؛ وثانية هذه القواعد أن تخيلنا للأحداث التاريخية يجب ألا يكون مبتدعا ، وإنما ينبغى أن « يقوم على أساس ماخلفته الأحداث الماضية من آثار ، ذلك أن ما كان لا يمكن أن يستعاد بحال ، إنما يمكن أن يستعاد نظريا من التركيب ، ابتداء مما خلفه من وقائع يعمل الذهن فيها أحيانا والخيال المبتدع أحيانا أخرى على أساس نوع من الوجدان هو مايسميه اشبنجلر باسم : التوسم : physiognomique — فبهذا التوسم نكون الصورة الماضية على خير وجه متيسر »[1]

ولكن دراستنا لما خلفه الماضى من آثار يجب أن تعتمد على أساس من

(١) مناهج البحث العلمى ١٨٣ — ١٨٤

الاستقراء فى جمع هذه الآثار من ناحية ، وفى تحليلها من ناحية أخرى،فينبغى ألا نغفل أياً كان من تلك الآثار مهما بدا هين القيمة ، كما يجب أن نلتزم فى تحليلها بالانتقال من الخاص إلى العام ، أى من الأحداث الجزئية إلى الصورة الكلية لهذه الأحداث،وفى هذا نقترب كل الاقتراب من خطوات المنهج التجريبى[1] الثلاث؛ وأولاها هى الوقوف عند مجرد الوصف للظواهر،دون محاولة مسبقة لتقديم نظرية عامة تصدر عنها ، والثانية ضرورة دراسة العلاقات والروابط الموجودة بين هذه الظواهر ، والثالثة محاولة وضع قوانين تنتظم فى سلكها تلك الظواهر الجزئية، أى استنتاج القواعد الكلية التى حكمت العلاقات بين الظواهر الجزئية وكونت من ركامها — على الرغم مما يتسم به من تشتت — وحدة كلية متسقة الوجود.

وبهذا التناول نجمع بين الأسس العامة لمنهجين علميين ؛ للمنهج الاستردادى والمنهج التجريبى،فى محاولة لابد منها لتوضيح الصورة الذهنية لفترة تاريخية مضت، وهى الفترة التى نشأت فيها الدراسات النحوية،منذ كانت شيئاً غير واضح القسمات فى صدر الإسلام ، إلى أن أصبحت وقد اتضحت معالمها وتشعبت مسالكها وتنوعت وسائلها على عهد الخليل بن أحمد وتلاميذه بعد نحو قرن. وفى تصورنا أن الالتقاء بين هذين المنهجين ممكن ،بل إن الجمع بين هذين المنهجين أمر تفرضه ضرورة الدراسة العلمية للتراث ، بعثاً له وتحليلا لقضاياه وظواهره واحياء لقيمه وأعلامه ، معتمدين فى ذلك كله على مايفرضه المنهج التاريخى من ضرورة توثيق النصوص ونقدها وتحليلها داخليا وخارجيا ، ثم اعتبار مايسلم إليه هذا النقد من أفكار هى الوحدات الضرورية فى التركيب، حتى لاتصبح دراستنا للأفكار قائمة على فجوات تاريخية أو معتمدة على تشابه ظاهرى ينتشر على السطح دون أن تمتد فى الأغوار جذور.

---

(١) مناهج البحث العلمى ١٢٨ـ١٢٩

[illegible]

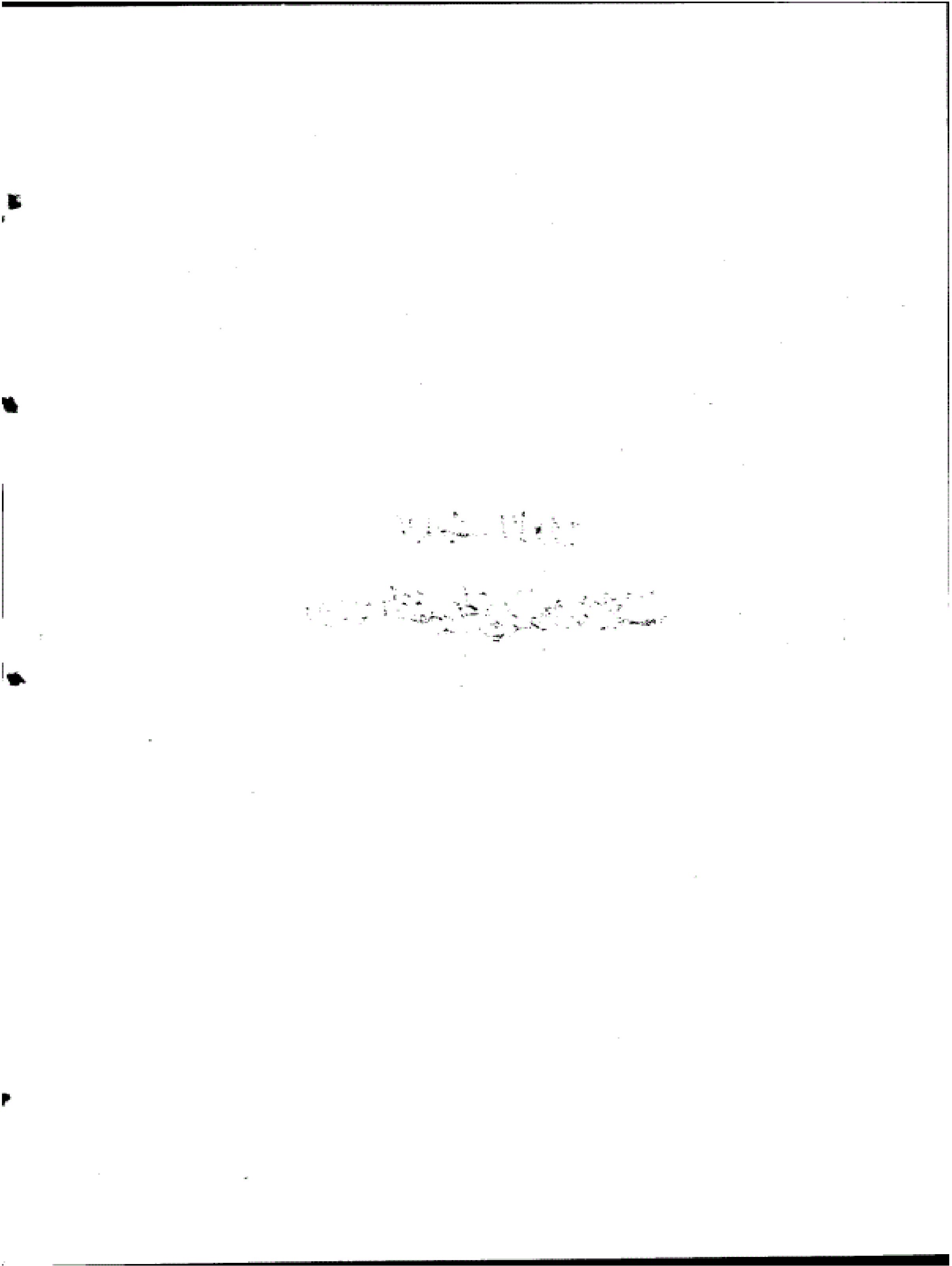
[illegible]

[illegible]

[illegible]

الباب الأول

نشأة التفكير النحوي ومناهجه



الفصل الأول

السمر التاريخي

لعل أقدم نص يتداول نشأة النحو العربي ما ذكره محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ١٣١ هـ ، في كتابه « طبقات فحول الشعراء » إذ ذكر أنه « كان لأهل البصرة في العربية قدما ، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية ، وكان أول من استن العربية وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي . . . وكان رجل أهل البصرة ، وكان علوي الرأي . . . وإنما قال ذلك حين اضطرب كلام العرب ، فغلبت السليقة ولم تكن نحوية ، فكان سراة الناس يلحنون ووجوه الناس ، فوضع باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم »(١) .

ويذكر ابن قتيبة (٢٧٦هـ) أن أبا الأسود « يعد في الشعراء والتابعين والمحدثين والبخلاء والمفاليج والعرج والنحويين ، لأنه أول من عمل كتابا في النحو بعد علي ابن أبي طالب »(٢) .

أما المبرد فيذكر أن « السبب الذي بنى له أبواب النحو وعليه أصلت أصوله ، أن ابنة أبي الأسود الدؤلي قالت : يا أبت ما أشدُّ الحر : قال : الحصباء بالرمضاء . قالت : إنّما تعجبت من شدته ، قال : أوقد لحن الناس ؟ . فأخبر بذلك عليا رحمة الله عليه ، فأعطاه أصولا بنى منها ، وعمل بعده عليها »(٣) .

---

(١) طبقات فحول الشعرا ط المعارف ص ١٢ ، ط السعادة ص ٩ ـ ١٠
(٢) الشعر والشعراء ٢٨٠ انظر المعارف ١٩٢ .
(٣) الفاضل .

« وفى القرن الرابع نجد كثيراً من المؤرخين والنحاة يتناولون نشأة النحو ، صراحة أو ضمنا ، ومن هؤلاء أبو القاسم الزجاجى ٣٣٧ـ أو ٣٤٠ هـ على خلاف ـ وأبو الطيب اللغوى ٣٥١هـ ، وأبو الفرج الأصبهانى ٣٥٦ هـ ، وأبو سعيد السيراف ٣٦٨هـ وأبو بكر محمد بن الحسين الزبيدى ٣٧٩هـ أو ٣٨٠هـ، وأبو حيان التوحيدى ٣٨٠ هـ ، ومحمد بن إسحاق النديم ٣٨٥ هـ .

وإذا كان هناك إتفاق بين نصوص القرن الثالث على وضع أبى الأسود النحو فإن نصوص القرن الرابع تختلف، فمنها ما يلتقى مع نصوص القرن الثالث على نسبة وضع النحو إلى أبى الأسود كما ينميه إلى غيره .

فأبو القاسم الزجاجى يذكر فى كتابه (الإيضاح فى علل النحو) فى باب «ذكر العلة فى تسمية النحو» نحو أن[1] « السبب فى ذلك ما حكى عن أبى الأسود الدؤلى أنه لما سمع كلام المولدين بالبصرة من أبناء العرب أنكر ما يأتون من اللحن لمشاهدتهم الحاضرة وأبناء العجم، ... وهم أن يضع كتابا يجمع فيه أصول العربية ، فمنعه من ذلك زياد ، وقال. لا نأمن[2] أن يتكل الناس عليه ويتركوا اللغة وأخذ الفصاحة من أفواه العرب ، إلى أن فشا اللحن وكثر وقبح ، فأمره أن يفعل ما كان نهاه عنه ، فوضع كتابا فيه جمل العربية ، ثم قال لهم : انحوا هذا النحو ، أى اقصدوه . .

ويقال إنه أول من سطر فى كتاب : الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، فسئل عن ذلك فقال .[3] « دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فرأيته مطرقا مفكراً ، فقلت : فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنى سمعت ببلدك هذا لحنا فأردت أن أضع كتابا فى أصول العربية

---

(١) الايضـاح فى علل النحو ٨٩ .

(٢) فى الأصل : لا نؤمن . وصححناها ما أثبتناه .

(٣) النص فى أمالى الزجاجى ٢٣٨ـ٢٣٩ . والأشباه والنظائر ١/٧،٢ وهو أيضا فى تاريخ الخلفاء ٨١١ ومعجم الأدباء ١٤/٤٩ـ٥٠

فقلت : إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة ، ثم أتيته بعد ثلاث فألقى إلى صحيفة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، الكلمة اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل ، ثم قال : تتبعه وزد فيه ما وقع لك ، واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة : ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل العلماء فى معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر — قال أبو الأسود : فجمعت منه أشياء وعرضتها عليه ، فكان من ذلك حروف النصب ، فذكرت منها : إن ، وأن ، وليت ، ولعل ، وكأن ، ولم أذكر لكن . فقال لى : لم تركتها ؟ فقلت : لم أحسبها منها . فقال : بل هى منها فزدها فيها » .

ويؤيد الزجاجى ما ذكره أبو الطيب فى مراتبه ، من أن ، « أول من رسم للناس النحو أبو الأسود الدؤلى ... وكان أبو الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين على عليه السلام ؛ لأنه سمع لحنا فقال لأبى الأسود : اجعل للناس حروفا — وأشار إلى الرفع والنصب والجر »[1] .

وأما أبو الفرج فيذكر فى أغانيه عددا من الروايات التى تختلف حول السبب المباشر فى وضع النحو ، ولكنها تتفق فى أن أبا الأسود قد أخذه عن على ابن أبى طالب .

فأبو الأسود يجيب وقد سئل عن مصدر علمه بالنحو ، بقوله : « أخذت حدوده عن على بن أبى طالب عليه السلام »[2] وأبو الفرج يفسر ذلك بذكره روايات متعددة من بينها تلك الرواية التى تحكى أن « أبا الأسود الدؤلى دخل إلى ابنته بالبصرة فقالت له يا أبت ما أشدُّ الحر — رفعت أشد — فظنها تسأله وتستفهم

---

(١) مراتب النحويين .   (٢) الأغانى ١٢/٢٩٩ .

منه : أى زمان الحر أشد ؟ فقال لها : شهر ناجر — يريد شهر صفر — ... فقالت : يا أبت ، أنما أخبرتك ولم أسألك . فأتى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين ، ذهبت لغة العرب لما خالطت العجم ، وأوشك إن تطاول عليها زمان أن تضمحل ، فقال له : وما ذلك ، فأخبره خبر ابنته ، فأمره فاشترى صحفا بدرهم ، وأملى عليه : الكلام كله لايخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى (وهذا القول أول كتاب سيبويه) ثم رسم أصول النحو كلها ، فنقلها النحويون وفرعوها »[١] .

وفى رواية أخرى يذكر أبو الفرج عن أبى حرب بن أبى الأسود قوله : « أول باب وضعه أبى من النحو باب التعجب »[٢] .

أما السيرافى فإنه يضم إلى جوار أبى الأسود اسمين آخرين ، إذ يحكى « أن الناس اختلفوا فى أول من رسم النحو : فقال قائلون : أبو الأسود الدؤلى ، وقال آخرون : نصر بن عاصم الدؤلى ... وقال آخرون : عبد الرحمن بن هرمز »[٣]

ويحاول الزبيدى أن يجعل نشأة النحو تفكيرا مشتركا ، وعملا تآزرت عليه جهود متعددة ، وكأنه بذلك يفسر الاختلاف الذى حكاه السيرافى فيقرر أن : « أول من أصل ذلك وأعمل فكره فيه ، أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلى ، ونصر ابن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، فوضعوا للنحو أبوابا ، وأصلوا له أصولا فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف »[٤] .

ولكن أبا حيان التوحيدى يهمل ذلك الاختلاف ويذكر أن سبب وضع

---

(١) الأغانى ١٢/٢٩٨ (٢) الأغانى ١٢/٢٩٩

(٣) أخبار النحويين البصريين ١٠ (٤) طبقات النحويين واللغويين ٢

النحو أن « على بن أبى طالب ـ رضوان الله عليه ـ سمع قارئاً يقرأ على غير وجه الصواب فساءه ذلك ، فتقدم إلى أبى الأسود الدؤلى حتى وضع للناس أصلا ومثالا وبابا وقياسا ، بعد أن فتق له حاشيته ، ومهد له مهاده ، وضرب له قواعده »[1]

وإذا كان أبو حيان قد أهمل الاختلاف فى وضع النحو ، متأثرا فى ذلك بنزعة شيعية غلابة ، فإن ابن النديم — آخر من تناول من علماء هذا القرن هذه القضية — كان أكثر حيدة ، إذ ذكر هذا الاختلاف فقال : « زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبى الأسود الدؤلى ، وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ، وقال آخرون : رسم النحو نصر بن عاصم الدؤلى ويقال : الليثى ، وقرأت بخط أبى عبدالله بن مقلة عن ثعلب أنه قال : روى ابن لهيعة عن أبى النضر قال : كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية ، وكان أعلم الناس بأمر ارقريش وأخبارها وكذا حدثنى الشيخ أبو سعيد رضى الله عنه »[2] .

ولكن ابن النديم لا يقف عند حد روايته لهذا الاختلاف دون ترجيح ، إذ لا يلبث حتى يذكر : « سببا يدل على أن أول من وضع فى النحو كلاماً أبو الأسود الدؤلى » ثم يروى ذلك السبب الدال بقوله : « كان بمدينة الحديثة رجل يقال له : محمد بن الحسين ، ويعرف بابن أبى بعرة ، جماعة للكتب ، له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة ، تحتوى على قطعة من الكتب العربية فى النحو واللغة والأدب والكتب القديمة ، فلقيت هذا الرجل دفعات فأنس بى ، وكان نفورا ضنيناً بما عنده ، خائفا من بنى حمدان : فأخرج لى قمطراً كبيراً فيه نحو ثلاثمائة رطل جلود فلجان ، وصكاك ، وقرطاس مصرى ، وورق صينى ، وورق

---

(١) البصائر والذخائر ١/٨٣

(٢) الفهرست ٩٥

تهامى ، وجلود أدم ، وورق خراسانى فيها تعليقات عن العرب ، وقصائد مفردات من أشعارهم ، وشيء من النحو والحكايات والأخبار ، والأسماء والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم ، وذكر أن رجلا من أهل الكوفة — ذهب عنى اسمه — كان مستهترا بجمع الخطوط القديمة ، وأنه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت بينهما ، وأفضال محمد بن الحسين عليه ، ومجانسة المذهب — فإنه كان شيعيا — فرأيتها وقابلتها فرأيت عجبا ، إلا أن الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملا أدرسها وأحرفها ، وكان على جزء أو ورقة أو مدرج توقيع بخطوط العلماء ، واحداً إثر واحد ، يذكر فيه خط من هو ، وتحت كل توقيع توقيع آخر خمسة وستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض . . ورأيت فى جملتها . . من خطوط العلماء فى النحو واللغة مثل أبى عمرو بن العلاء ، وأبى عمرو الشيبانى ، والأصمعى ، وابن الأعرابى ، وسيبويه ، والفراء ، والكسائى . ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثورى ، والأوزاعى ، وغيرهم . ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبى الأسود ما هذه حكايته ، وهى أربعة أوراق — أحسبها من ورق الصين — وترجمتها : هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود رحمة الله عليه ، بخط يحيى بن يعمر ، وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوى ، وتحته هذا خط النضر بن شميل ، ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه فما سمعنا له خبرا »[1]

* * *

وفى القرون التالية — بعد القرن الرابع الهجرى — لا يقدم العلماء جديدا فى شأن الخلاف فى وضع النحو ، هذا الخلاف الذى حكته نصوص القرن الرابع ؛

---

(١) الفهرست ٦٠ — ٦١ .

فالثعالبي ممثلا بقية علماء القرن الخامس[1] ٤٢٩هـ يعد أبا الأسود « في الفصحاء والعقلاء والشعراء والشيعة وأصحاب العربية والنحو وفي البخـــلاء والمفاليج والمعمرين »[2] ويقول عنه «إنه لا يعرف مثله»[3] . دون أن يتنـاول دوره بين أصحاب العربية بالتحليل ؛ ولعله كان متأثراً في ذلك بمنهجه الخاص في تأليف كتابه الذي يضم أمشاجا شتى من المعلومات ، ولطائف متعددة من المعارف منقولة عن مصادر متنوعة دون تحليل كثير أو قليل للروايات ومصادرها،ومن غير تفسير للمعلومات المختلفة ونصيب الحقيقة منها ، ولعله يستند في حديثه السابق عن أبي الأسود إلى ما ذكره الجاحظ عنه من أنه كان « خطيبا عالما ، وكان قد جمع شدة العقل ، وصواب الرأي ، وجودة اللسان ، وقول الشعر والظرف ، وهو يعد في هذه الأوصاف ، وفي الشيعة ، وفي المرجان ، وفي المفاليج[4] » .

أو ينقل عن أبي الفرج الذي نسب إلى الجاحظ أيضا قوله : إنه « أي أبا الأسود ، معدود في طبقات الناس ، وهو في كلها مقدم ، مأثور عنه الفضـل في جميعها ، كان معدوداً في التابعين ، والفقهاء ، والشعراء ، والمحدثين ، والأشراف والفرسان والأمراء ، والدهاة ، والنحويين ، والحاضري الجواب ، والشيعة ، والبخلاء ، والصلع الأشراف ، والبخر الأشراف »[5]

وابن الأنباري ٥٧٧ هـ يذكر روايات متعددة تحكي ذلك الاختلاف في وضع النحو ، فهو يروي أن « أول من وضع علم العربية ، وأسس قواعده ،

---

(١) انظر أيضا : أمالي السيد المرتضى (٤٣٦ هـ) ١/٢١٢ — ٢١٤ ؛ الحصري القيرواني (٤٥٣هـ) جمع الجواهر ٢٠٦ ؛ ابن حزم (٤٥٦هـ) جمهرة أنساب العرب ١٧٥ الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) تاريخ بغداد .

(٢) لطائف المعارف ٣٩ (٣) السابق

(٤) البيان والتبيين ١/٣٢٤ . (٥) الأغاني ١٢/٢٩٩

وحد حـــدوده أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ، وأخذه عنه أبو الأسود الدؤلى »[١]

ويذكر رواية ثانية تقول إن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — هو الذى أمر أبا الأسود بأن يضع النحو [٢] — ويذكر فى رواية ثالثة أنه قد « زعم قوم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، وزعم آخرون أن أول من وضع النحو نصر بن عاصم »[٣] ولكنه لا يكتفى بتضعيفه هذه الرواية التى نسبت وضع النحو إلى عبد الرحمن بن هرمز أو نصر بن عاصم بتصديرها بقوله (زعم) . بل يرفض هذه الرواية صراحة « فأما من زعم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج أو نصر بن عاصم فليس بصحيح لأن عبد الرحمن أخذ عن أبى الأسود ، ويقال : عن ميمون الأقرن » [٤] وينتهى من ذلك إلى أن « الصحيح أن أول من وضع النحو على بن أبى طالب رضى الله عنه، لأن الروايات كلها تسند إلى أبى الأسود وأبو الأسود يسند إلى على »[٥]

ولا يضيف أحد من علماء القرن السابع جديداً يفيد فى تفسير نشأة النحو ونسبة هذه النشأة ، غير مجرد ترجيح وضع أبى الأسود له ترجيحا لا يعتمد على غير كثرة الروايات التى تنسب إليه دور الريادة فى تلك النشأة ، متأثرا فى ذلك بتوجيهات على ، ويستوى فى ذلك ما يحكيه ياقوت ٦٢٦ هـ الذى تناول القضية فى موضعين : فى ترجمته لأبى الأسود [٦] ، وفى ترجمته لعلى [٧] وابن الأثير ٦٢٠ هـ [٨] ومايرويه القفطى ٦٤٦ هـ [٩] ، وابن خلكان ٦٨١هـ[١٠]

(١) نزهة الألبا ٣
(٢) المصدر السابق ٩
(٣) المصدر نفسه ١٣
(٤) نفسه ١٣ — ١٤
(٥) نزهة الألبا ١٤
(٦) معجم الأدباء ١٢/٣٤
(٧) معجم الأدباء ١٤/ ٤٩ — ٥٠
(٨) الكامل ٤/١٠٩/٢٠٨١
(٩) أنباه الرواة ١/٤ ، ١٤ — ١٦
(١٠) وفيات الأعيان ٢/٢١٦ - ٢١٧ .

وإذا كان علماء القرن السابع قد اكتفوا بترجيح وضع أبي الأسود للنحو، مع حكايتهم لما فيه من خلاف؛ فإن علماء القرون التالية قد خطوا بعدم خطوة، إذ استقرت عندهم نسبة وضع النحو إلى أبي الأسود، دون أن يعنوا كثيرا بما في هذه النسبة من اختلاف، يؤكد ذلك نص ابن مكتوم ٧٤٩ هـ في تلخيصه[١] الذي اعتمد فيه كل الاعتماد على إنباه القفطي، حتى لا نكاد نجد له مصدرا آخر غيره، وابن نباتة ٧٦٨ هـ في سرحه[٢]، واليافعي ٧٦٨ هـ في مرآته[٣]، وابن كثير ٧٧٤ هـ في كامله[٤]، وابن قاضي شهبة[٥] ٨٥١ هـ، وابن الجزري ٨٤٤[٦] في طبقاتهما، وابن حجر العسقلاني ٨٥٢ هـ في تهذيبه[٧]، وابن تغري بردي ٧٨٤ هـ في نجومه[٨]، وابن العماد ١٠٨٩ في شذراته[٩]، والبغدادي ١٠٩٣ في خزانته[١٠].

وينفرد السيوطي[١١] ٩١١ هـ من بين علماء هذه الفترة بأنه يعود إلى القديم، إذ يحكي الروايات كلها على اختلافها، في أكثر من موضع من كتبه، دون محاولة للترجيح بينها حينا كما فعل في الأخبار المروية[١٢]، ومع نقد الروايات المختلفة حينا آخر[١٣]، ثم مع ترجيح يصل إلى حد القطع الذي لا يقبل شكا في بعض الأحيان[١٤].

---

(١) تلخيص أخبار النحويين واللغويين (مخطوط) ورقة ٤ — ٥

(٢) سرح العيون ١٠٨. (٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان ١/١٤٤، ٢٠٣ــ٢٠٥ (٤) البداية والنهاية ٨/٣١٢.

(٥) طبقات ابن قاضي شهبة مصور لوحة ٢/٢٨٤ (٦) طبقات القراء ٣٤٥٠٤ــ٣٠٤

(٧) تهذيب التهذيب ١٢/١٠ــ١١، وانظر الاصابة ٣٠٤ — ٣٠٥.

(٨) النجوم الزاهرة ١/١٨٤ (٩) شذرات الذهب ١/٧٦.

(١٠) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ١/١٣٦ــ١٣٨.

(١١) تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر ٥٤

(١٢) الأخبار المروية في سبب وضع العربية (مخطوط) ٤٦ أ ــ ٤٧ ب

(١٣) الأشباه والنظائر ١/٦ــ٧

(١٤) أنظر: المزهر ٢/٣٩٧ــ٣٩٨، بغية الوعاة ٢٧٤، تاريخ الخلفاء ١٧١.

وأما المعاصرون من الدراسين فإنه يمكن أن نميز بينهم اتجاهات ثلاثة :

الاتجاه الأول يكتفي بسرد الروايات التاريخية المتعددة ، المختلفة الدلالة ، دون أن يحاول تقديم تفسير لاختلافها أو يرجح بينها[١] .

والاتجاه الثاني يعترف بدور أبي الأسود على نحو أو آخر ، وهو الاتجاه الشائع بين الدارسين[٢]

وأما الاتجاه الثالث ، فإنه يرفض الاعتراف بدور أبي الأسود ، وأصحاب هذا الاتجاه ، وإن اتفقوا على نفي كل دور لأبي الأسود فإنهم يختلفون فيما وراء هذا الاتفاق ، إذ يحاول كل منهم أن يقدم من يعتبره المؤسس الأصيل للدراسات النحوية ، منطلقاً من وجهة نظر خاصة ، ترفض — في كثير من الأحيان — الإلمام بالظروف الموضوعية التي صاحبت نشأة الدراسات النحوية ، وفرضت اسم أبي الأسود رائدا في هذا المجال ، وهكذا وجدنا أسماء جديدة أضافها الدارسون المحدثون إلى اسم أبي الأسود وزميليه نصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز ، ونسبوا إليها التأثير الحقيقي في نشأة البحث النحوي ، وعلى رأس هذه الأسماء عبد الله بن أبي إسحاق ، ثم الخليل بن أحمد وسيبويه[٣] .

وبشيء من التأمل يسير يتضح أن اتجاهات الباحثين المعاصرين ترتكز — في جوهرها — على الروايات المختلفة التي امتدت عبر قرون طوال . كما تعتمد

(١) انظر — الفراء ومذهبه في النحو واللغة ٣٦٥ — ٣٧٥

(٢) انظر تاريخ العرب العام ٤٥٨ ، دائرة معارف البستاني ٧٨٨/١ . سيبويه إمام النحاة ١٢٢ ، سيبويه : بحث للمرحوم الدكتور أحمد أحمد بدوي بصحيفة كلية دار العلوم العدد الأول من السنة الرابعة عشرة ، ضحى الإسلام ٢٨٦/٢ ، أبو علي الفارسي ٤٣١ اللغة والنحو ٢٣٥ — ٢٣٨ ، ابن مالك (مخطوط) ٢ — ٣ ، مدرسة البصرة النحوية (مخطوط) ٣٩ — ٤١ . نشأة النحو ١٩ ؛ مقال الأستاذ عبد الوهاب حموده في الرد على الأستاذ إبراهيم مصطفى . منشور بمجلة كلية الآداب المجلد ١٣ الجزء الأول .

(٣) انظر : دائرة المعارف الإسلامية ٣٠٨/١ . مقال إبراهيم مصطفى المنشور بمجلة كلية الآداب المجلد العاشر : الجزء الثاني ١ — ٦ . مناهج البحث في اللغة ٥٨

أيضا على الفهم الخاص لمضمون (النحو) ، وهو فهم يحتاج إلى شيء من التحديد، ويتطلب قدراً من التوضيح ، إذ من الممكن أن يكون كثير من الاختلاف بين المعاصرين فيه ناشئا عن عدم تحديدهم له . . .

وعن هذين العاملين تمتد اختلافات المعاصرين ، مما يتطلب تحليلالهما ، إذ بهذا التحليل يمكن أن تتحدد معالم القضية وتتضح أبعادها ، وقد يقربنا ذلك إلى تصور صحيح أو قريب من الصحة لما حدث .

إن النصوص الكثيرة التي تنتشر في التراث ، والتي تتناول قضية نشأة الدراسات النحوية ، تلتقي في أشياء :

أولا : أن كل النصوص المنسوبة إلى القرن الثالث تجمع — بصيغة جازمة — على أن أبا الأسود هو واضع علم النحو ، فابن سلام وابن قتيبة والمبرد يتفقون جميعاً في أن أبا الأسود « أول من استن العربية ، وفتح بابها ، وأنهج سبيلها »[١] « وهو أول من عمل كتابا في النحو »[٢] .

ثانياً : يظل هذا الإجماع قائما ، لاشك فيه ، حتى بعيد منتصف القرن الرابع الهجري ، إذ أول من تردد في القطع بوضع أبي الأسود للنحو هو السيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ هـ[٣] — وتبعه ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ هـ[٤] .

ثالثا : على الرغم مما رواه السيرافي عن التردد في نسبة وضع النحو بين أبي الأسود ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز ، فإنه يضيف إلى ذلك قوله « وأكثر الناس على أبي الأسود الدؤلي »[٥] .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ط المعارف ١٢ . (٢) الشعر والشعراء ٨٢٠ .
(٣) أخبار النحويين البصريين ١٠ (٤) الفهرست ٥٩
(٥) أخبار النحويين البصريين ١٠

وعلى الرغم من أن ابن النديم يذكر هذه الأكثرية بصيغة التضعيف فإنه لا يلبث أن يضيف إليها « سببا يدل على أن أول من وضع فى النحو كلاما أبو الأسود الدؤلى »[1] .

رابعا : ثم إن كثيراً من تلك النصوص تلتقى فى شىء آخر ، ولكنه شىء يضعف من قيمتها وإن أوشكت أن تبلغ درجة كبيرة من الاتفاق ، وهو أن معظم رواتها الذين ينسبون إلى أبى الأسود وضع النحو شيعة ، وكثير منهم شيعة متعصبون ، حتى إن منهم من يلعن معاوية وبنى أمية ، ويتكرر وصفهم لمعاوية بأنه « اللعين ابن اللعين ابن آكلة الأكباد »[2] ولعل مما يؤكد ذلك توقف الجاحظ عن نسبة وضع النحو لأبى الأسود ، مع حرصه على أن يعدد أوصافه[3] ، وكلفه برواية كثير من نوادره[4] ، إذ هو معتزلى ، وكذلك فعل أبو العلاء إذ ذكر أبرز صفات أبى الأسود دون أن يجعل بينها العربية والنحو[5] . ومعنى هذا أن قضية نشأة النحو قد اتخذت طابعاً سياسياً ، فالشيعة ومن يوالونهم ينسبون النحو إلى أبى الأسود ، بتوجيه من على ، وغير الشيعة لا ينسبون إلى أبى الأسود شيئا فى النحو حتى لا يكون ذلك سبيلا إلى نسبته إلى على ، ولقد يفسر هذا الطابع السياسى لهذه القضية العلمية نص ذكره القفطى وأكد فيه أن أهل مصر قاطبة يرون أن أول من وضع النحو على بن أبى طالب وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلى[6] ؛ إذ ليس من

---

(١) الفهرست ٦٠ — ٦٢ .

(٢) انظر : مقاتل الطالبيين ٦٨ ، ٧٠ .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٢٤

(٤) الحيوان ٧/٨٣ — ٨٤ ، ٩٢ ، ٥/٤٤٥

(٥) رسالة الغفران ٣٩٢

(٦) انباه الرواة ١/٦

من شك أن أهل مصر (قاطبة) ليسوا بعلماء ، تعنيهم قضايا العلم ، وتشغلهم بحوثه ، حتى يكون لإجماعهم قيمة فيه ، أو هو نوع من التجوز فى التعبير ، مرده إلى تسلط النظرة السياسية على تفكير القفطى .

وهكذا فإن الوقوف عند هذه النصوص وحدها لن ينتهى بنا إلى رأى حاسم؛ إذ هناك مايدفع إلى الاعتداد بها ، كما أن ثمة مايحمل على الشك فيها ، فالوقوف عندها — وحدها — لاغناء فيه ، وليس بد من دراسة الظروف الموضوعية التى أحاطت بنشأة النحو ، ودفعت العلماء إلى التفكير فى تناول النصوص اللغوية بالضبط ثم بالتقعيد .

وإذاً فإنه لابد من دراسة تمتد فتشمل جوانب الموضوع وتحلل أبعاده، وتتناول:

(١) الظروف والدوافع التى أحاطت بنشأة النحو .

(٢) الشخصيات التى تنسب إليها ريادة البحث النحوى .

(٣) صورة النحو الأولى .

* * *

يرى كثير من الدارسين — قدماء ومحدثين — أن السبب فى نشأة الدراسات النحوية — وهو ما يصطلح عليه بوضع النحو — هو شيوع اللحن بعد أن فتحت الفتوح الكثيرة على المسلمين ، ونتج عنها دخول أمم أجنبية فى الإسلام واختلاطها بالعرب . وهذا يعنى — عند هؤلاء الدارسين — أن اللغة العربية قبل الفتوحات لم تعرف اللحن ، إذ « كانت جزيرة العرب سليمة المنطق قبل الفتح ، وقبل دخول الأعاجم فى الإسلام ، ثم بدأ اللحن يفشو فيها »(١)

وقد أثار هذا اللحن وذيوعه انتباه أبى الأسود بعد حادثة خاصة أدرك أنها

---

(١) ضحى الإسلام ٢٩٤/١

أن اللحن لم يعد يتوقف عند الأجانب الداخلين فى الإسلام وإنما تجاوزهم إلى الخلص أيضا ، فلم يجد بدا من أن يضع أصولا لضبط اللغـــــة ، ومن ثم نشأ البحث النحوى .

أما هذه الحادثة التى كانت سببا فى نشأة الدراسات النحـوية بأسرها فقد اختلف فيها المؤرخون :

فالمبرد يذكر أن هذه الحادثة ليست إلا مناقشة جرت بين أبى الأسود وابنته، لحنت فيها ابنة أبى الأسود ؛ فأخـبر بذلك عليا كرم الله وجهه « فأعطاه أصولا بنى منها وعمل بعده عليها » [1]

ويروى أبو الفرج فى ذلك حادثة أخرى ، لم تـكن بين أبى الأسود وابنته ولم يشاركهما فيها على ، وإنما وقعت بين أبى الأسود وزياد ، إذ جاء أبو الأسود إلى « زياد بالبصرة ، فقال له : أصلح الله الأمـير ، إنى أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم ، وتغيرت ألسنتهم ، أفتأذن لى أن أضع لهم علما يقيمون به كلامهم. قال : لا . . ثم جاء زيادا رجل فقال : مات أبانا وخلف بنون ، فقال زياد: مات أبانا وخلف بنون ! ! ردوا على أبا الأسود الدؤلى ، فرد إليه ، فقال : ضع للناس ما نهيتك عنه » [2].

وفى رواية ثانيـة — لهذه الحادثة نفسها — أنها وقعت بين أبى الأسـود وعبيد الله بن زياد [3].

وفى رواية ثالثة ـ ذكرها السيرافى ـ أن زيادا هو الذى بعث إلى أبى الأسود

(١) الفاضل ٩٥
(٢) الأغانى ٢/ ٢٩٩
(٣) السابق، طبقات النحاة واللغويين لابن قاضى شهبة (مصور) لوحة ٤٢

يسأله أن يعمل أصولا تضبط للناس لغتهم ، فرفض أبو الأسود حتى سمع قارئا يقرأ : (إن الله برىء من المشركين ورسولِه) ـ بكسر لام الرسول ـ فراع ذلك أبا الأسود ، فذهب إلى زياد وطلب منه « كاتبا لقنا يفعل ما أقول . فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه فأتى بآخر . . فقال له أبو الأسود : إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فنقط نقطة فوقه على أعلاه فإن ضممت فمي فنقط نقطة بين يدي الحرف وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف ، فان اتبعت شيئا من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين »[1]

وهكذا نقط أبو الأسود المصحف .

ولكن ابن الأنباري يذكر أن اللحن في هذه الآية كان على عهد عمر ، ويروى أن أعرابيا قدم المدينة فى خلافة عمر بن الخطاب فابتغى من يقرئه القرآن ، فأقرأه رجل الآية السابقة بالجر ، « فقال الأعرابى : أقد برىء الله من رسوله ؟؟ فأنا أبرأ منه . فبلغ عمر عليه السلام مقال الأعرابى ، فدعاه فقال : يا أعرابى أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال . يا أمير المؤمنين ، إنى قدمت المدينة ولاعلم لى بالقرآن ، فسألت من يقرؤنى فأقرأنى هذا سورة براءة : (إن الله برىء من المشركين ورسولِه) فقلت أو قد برىء الله تعالى من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابى »[2] وصحح له الآية ، ثم أمر عمر بعد ذلك أن لا يقرىء القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع النحو[3]

ويذكر السيرافى والقفطى حادثة رابعة تختلف عن الحوادث السابقة ، فى أن بطلها ليس عربيا ، بل أعجمى من أهل نوبندجان أو بوزنجان ، اسمه سعد ، مر

(١) أخبار النحويين البصريين ١٢
(٢) نزهة الألبا ٨ـ٩
(٣) نزهة الألبا ٩ .

بأبى الأسود يقود فرساله . فسئل : مالك لا تركبه ؟ فأجاب بقوله : إن فرسى ظالعا — وأراد أن يقول : (ظالع) فأخطأ — فضحك به بعض من حضر ، فقال أبو الأسود : هؤلاء الموالى قد رغبوا فى الإسلام ودخلوا فيه فصاروا لنا إخوة. فلو علمناهم الكلام ، فوضع باب الفاعل والمفعول [1]

وهذه الحوادث المختلفة ـ على تعددها ـ تتفق فى نوع اللحن الذى تتسم به، أى فى الخطأ الذى وقعت فيه ، وهو الخطأ فى الحركة الإعرابية، ولكن أبا الطيب. يذكر حادثة ليس الخطأ فيها خطأ إعرابيا ، بل فى التطابق ، وفى نوع خاص منه. وهو التطابق فى التذكير والتأنيث ، فهو يروى عن الخليل أن أبا الأسود لم يزل ضنيناً بما أخذه عن على عليه السلام حتى قال له زياد : قد فسدت ألسنة الناس ، وذلك أنهما سمعا رجلا يقول : سقطت عصاتى [2]

هذان نوعان من الخطأ التركيبى تشير إليهما الحوادث المختلفة ، أولهما خطأ فى التصرف الإعرابى ، وثانيهما خطأ فى التطابق ، ولكن هذين النوعين من الخطأ ليسا كل مايصيب التركيب من أخطاء . إذ ثمة نوع ثالث هو الخطأ فى الترتيب كما حكى الجاحظ : قلت لخادم لى : فى أى صناعة أسلم هذا الغلام ؟ فقال: أصحاب سند نعال ، يريد فى أصحاب النعال السندية [3] ولكن هذا النوع الثالث من الخطأ التركيبى لا تذكر الحوادث له أمثلة أثرت فى نشأة الدراسات النحوية ، فلعل هذا الخطأ قد تأخر ظهوره إلى أوائل العصر العباسى .

وكلمة (اللحن) كما تطلق على الخطأ التركيبى بأنواعه المختلفة ، تطلق كذلك على الخطأ فى الصيغ ، وصوره متعدده ، فهناك خطأ فى بناء الكلمة كقول نبطى

---

(١) انظر : انباه الرواه ١/٦ ، أخبار النحويين البصريين ١٣ـ١٤

(٢) مراتب النحويين ٨ ، وقد نسبها الرافعى إلى الجاحظ . انظر: تاريخ آداب العرب ١/٢٤٥

(٣) البيان والتبين ١/٦٢

عن أتان له : أركبها وتلد لى بفتح اللام .(١) . وهناك خطأ فى طريقة النطق كنطق الحاء هاء ، أو القاف كافاً ، كما أن هناك خطأ ثالثا يصيب وزن الكلمة مثل رعد وبرق بدلا من أرعد وأبرق (٢). بيد أننا نلحظ أن الخطأ فى الصيغ ــ على تعدد صوره ــ لم تشر إليه الحوادث فى فترة نشأة الدراسات النحوية، وذلك يدل على تأخر الدراسات الصرفية ، لا على عدم وقوع هذا النوع من الخطأ فى فترة النشأة النحوية ؛ إذ من المؤكد أن أنماطاً من الخطأ فى الصيغ قد وقعت فى صدر الإسلام بل وفى العصر الجاهلى أيضاً ، ونعنى بها ما كان مرد الخطأ فيها إلى الخصائص الصوتية ، أى العادات النطقية ، إذ من الجاهليين والإسلاميين من تأثرت عاداتهم بلغات غير العربية ، إما لأنهم أجانب انتقلوا إلى الجزيرة أو لأنهم عاشوا – فترة تكوينهم اللغوى ــ فى رحاب أم غير عربية ، ويمثل لهؤلاء وهؤلاء صهيب وبلال(٣) ، فصهيب وإن كان عربى الأصل إلا أنه اختطفه البيزنطيون فى طفولته فربوه ، ولذلك كان ينطق العربية بلهجة بيزنطية ، وبلال حبشى مثله فى ذلك مثل الكثيرين من الأحباش الذين استقروا فى الجزيرة بعد طرد الاحتلال الحبشى من اليمن ، على يد سيف بن ذى يزن (٤)

من تلك الحوادث المتعددة والمتضاربة يستنتج المؤرخون القدامى أن أبا الأسود قد وضع بسببها عددا من التعاريف والتقاسيم والأبواب كانت بدء النشاط العلمى فى ميدان الدراسات النحوية ، إذ نقلها الجيل التالى لأبى الأسود من تلاميذه إلى أسلافهم ، الذين استطاعوا أن ينموها بالقياس عليها .

وفى هذا كله سذاجة فى تصور نشأة علم النحو ، وفى تخيل أسباب هذا

(١) البيان والتبيين ١٦/١

(٢) انظر اللغة والنحو ١٦٤ ــ ١٦٥

(٣) انظر الاصابة ١٩٥/٢ ، العربية ١٢

(٤) انظر . دائرة المعارف الاسلامية ١٣/٣ وما بعدها

النشأة ، مما حدا بكثير من الباحثين المعاصرين ــ الذين روعتهم اختلافات الروايات وتناقضها إلى إنكار دور أبى الأسود ، حتى إن بروكلمان يعده من قبيل الأساطير دراسات أبى الأسود وتلاميذه المزعومين »[1] . ويشك أحمد أمين في أن تكون هذه الروايات المختلفة موضوعة على نمط بعض الروايات الهندية[2] . ويقرر أن « كل هذا حديث خرافة ، فطبيعة زمن على وأبى الأسود تأبى هذه التعاريف وهذه التقاسيم الفلسفية ، والعلم الذى ورد لنا من هذا العصر فى كل فرع علم يتناسب مع الفطرة ، ليس فيه تعريف ولا تقسيم ؛ وإنما هو تفسير آية أو جمع لأحاديث ليس فيها تبويب ولا ترتيب ، فأما تعريف وأما تقسيم منطقى فليس فى شىء مما صح نقله إلينا عن اعصر على وأبى الأسود ، وأخشى أن يكون ذلك من وضع بعض الشيعة الذين أرادوا أن ينسبوا كل شىء إلى على بن أبى طالب »[3] . ويتابعهما إبراهيم مصطفى فيقول : « ولكنا لا نستطيع أن نقبل ذلك ــ يعنى وضع أبى الأسود للنحو ــ بيسر ، ولا نستسيغ أن هذا الزمن المبكر قد تمكن فيه العرب من الاشتغال بالعلوم ، ووضع القواعد ، على هذا الوجه الذى نراه فى كتب العربية ، وقد أنكر ذلك المستشرقون وعدوه حديث خرافة »[4] ثم طبق منهجا اعتمد فيه على تتبع كتب النحو الباقية بأيدينا لنعلم أقدم عالم نسب اليه رأى نحوى فى هذه الكتب ، وكان أول هذه الكتب كتاب سيبويه »[5] وقد انتهى من ذلك إلى أن أقدم هؤلاء النحاة الذين ينسب اليهم رأى هو عبد الله بن أبى إسحاق ، إذ لم يجد لأبى الأسود ولا لطبقتين بعده شيئاً .

(١) تاريخ الأدب العربى ٢/١٢٣

(٢) ضحى الإسلام ١/٢٤٥

(٣) ضحى الإسلام ٢/٢٨٥

(٤) انظر بحث إبراهيم مصطفى فى مجلة كلية الآداب المجلد ١٠ جزء ٢ ص ١ ــ ٦

(٥) السابق

والواقع أن فى الأخذ بهذا الأسلوب ــ الذى اتبعه الأستاذ إبراهيم مصطفى رحمه الله ــ كثيرا من التجوز والإسراف فى الخطأ فى تصور نشأة العلوم وتطورها؛ إذ يعتمد على تصور زائف أن الأفكار التى تصاحب النشأة تقف فى مستوى واحد مع الأفكار التى ينميها التطور الدائم والدراسة المستمرة ، وأن الأشخاص الذين يساهمون فى تشكيل لبنات العلوم الأولى لابدلهم من الإحاطة بفروع هذه العلوم والإلمام بتفاصيلها والوقوف على أبعادها ، وهذا كله خطأ ، ومن ثم فإن كل النتائج التى وصل إليها الأستاذ إبراهيم مصطفى لاتقدم إضافة حقيقية ، أولا لأن ماورد من كتب ليس كل ما كتب ، وكتاب سيبويه ليس أقدم المؤلفات النحوية وإن كان أقدم ماوصل الينا من هذه المؤلفات . وثانيا لأن التطور المستمر والدراسة الدائبة تغير من قضايا العلم وتنمى أفكاره الأساسية بما ترفدها به من أفكار جديدة ، وسنضرب لذلك مثلا واحدا يوضح إلى أى مدى يؤثر التطور العلمى فى قضايا العلوم المختلفة ، وفى النحو بنوع خاص ، فابن أبى إسحاق كان أعلم أهل البصرة وكان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل ، وكان هو والنحو سواء ــ أى هو الغاية فى البحث النحوى ــ وعلى الرغم من كل ذلك فقد أجاب يونس ــ وقد سئل عن علم ابن أبى إسحاق بالقياس إلى ماحدث من تطور بعده ــ أجاب بقوله : « لو كان فى الناس اليوم من لايعلم إلا علمه لضحك منه » [1]

وإذا فإن هذا المستوى من التناول ــ سواء كان من المؤيدين لروايات الأقدمين أو من المنكرين لهذه الروايات تأثرا باتجاهات المستشرقين ــ جزئى وسطحى .

أما أن هذه الروايات سطحية فلأنها تجعل من الحوادث الفردية ــ وحدها ــ سببا فى إدراك ظاهرة من أبرز الظواهر اللغوية ، وفى تناولها بالتقعيد أيضا وكأن أصحاب هذه الروايات يتصورون أن أحدا لم يخطىء فى حركات التصرف الإعرابى من قبل ، وكأن اللحن لم يلفت أنظار الناطقين باللغة قبل على وأبى الأسود ،

---

(١) طبقات فحول الشعراء ط المعارف ١٤

مع أن النبي صلوات الله عليه يقول : « أنا من قريش ، ونشأت في بني سعد ، أنى لي اللحن »[1] . وحين يخطىء رجل بحضرته يقول لأصحابه : « أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل »[2] ويقول : أصلحوا أخاكم رحم الله امرأ أصلح من لسانه [3] وإذن فاللحن معروف على عهد النبي والإحساس بخطره معروف على عهده أيضا ، حتى إنه ليعبر عن الوقوع فيه بالضلال ، ومن الثابت أن اللحن كان موجودا في العصر الجاهلي أيضا [4] ولو كان مجرد اللحن في اللغة مدعاة لوضع النحو لوجدنا على الأقل محاولات فيه أيام الرسول صلى الله عليه وسلم أو أيام الخلفاء الراشدين من بعده [5] ومن ثم فإن تصور أن بعض الأحداث الجزئية الفردية التي وقعت لأبي الأسود أو لغيره من معاصريه كانت وحدها وراء وضع هذا العلم تصور مسرف في السذاجة وفي الخطأ معا ، لأنه لا يربط نشأة العلم بالظروف الموضوعية التي حتمت التفكير فيه ، ويجرد نشأة العلم من هذه الظروف ليحيلها إلى حماس فردي وغيرة شخصية ، وفي يقيننا أن نشأة هذا العلم أكبر من حماسة أفراد وغيرة أشخاص ، لأنها قضية الحاجة الاجتماعية والفكرية للأمة بأسرها .

وأما أن موقف المستشرقين ومن تبعهم سطحي أيضا ، فلأنهم وقفوا إزاء تعدد الروايات التي تتناول القضية واختلافها موقفاً سلبيا ، فلم يحاولوا تحليل هذه الروايات وبيان ما إذا كانت تتسم بالتناقض أو أن تعددها واختلافها لم يصل بعد إلى هذه الدرجة ، ونتيجة لهذا الموقف السلبي أدخلوا القضية بأسرها في باب الأساطير ، فلا مجال للتثبت منها ولا لإلقاء أضواء عليها ، لأن « تاريخ

---

(١) مراتب النحويين ٦ (٢) ، (٣) لمع الأدلة ٩٦

(٤) انظر الظواهر اللغوية في التراث النحوي الباب الأول

(٥) اللغة والنحو ١٠٦

وضع النحو لاسبيل إلى تحقيقه ألبتة » (١) . وكأنهم يربطون بين قضيتين تختلفان أبعد الاختلاف ، قضية نشأة النحو، وقضية نشأة اللغة ، وهذا كله خطأ ، لأن الهرب من التصدي المشكلة ليس حلا لها . ولأن نشأة النحو غير نشأة اللغة ؛ إذ النحو دراسة للنظام التركيبي للغة ، وما يطرأ على صيغها من تغير بعد تركيبها للدلالة على الأفكار الذهنية أو العلاقات الاجتماعية ، وهو على هذا يطلب نوعا من النمو الحضاري ، وبدراسة المرحلة التي تعيشها الأمة يمكن أن ندرك مدى ملاءمة الظروف لنشأة العلوم ومواتاتها لتطورها باعتبارها صوراً من النشاط الحضاري ، أما نشأة اللغة فليست قضية علمية بقدر ما هي مشكلة فلسفية ، ومن ثم يستطيع الإنسان التفكير فيها وإصدار أحكامه عليها دون أن يكون له أساس علمي يحكم تحليله ويصوغ أحكامه .

وموقف التابعين للأقدمين كموقف المنكرين لرواياتهم ، يتسم بالجزئية أيضاً ؛ لأن الأقدمين ومن تبعهم يقطعون الصلة بين نشأة النحو ونشأة غيره من العلوم ، وكأن النشاط الفكري الإنساني يمكن تجزئته ، وهو خطأ ، لأن الوجود الإنساني كلي ، والإنسان فيه لاينفصل عن الظروف المحيطة به ؛ إذ تؤثر فيه ، ويؤثر فيها ، ومن ثم فإن من المستحيل دراسة قضية علمية — مهما بدت منعزلة عن الاحتكاك الاجتماعي — دون أن نضع في الاعتبار المستوى الفكري الذي أنتج هذه القضية ، ولانستطيع الوقوف على هذا المستوى الفكري دون أن نلمس طاقات القدرات العقلية كما تتجلى في المواد المختلفة .

وموقف المنكرين — مستشرقين وغير مستشرقين — جزئي كذلك ، لأن المنهج الذي حسبوه موصلا إلى ادراك بعض الحق في هذه القضية ليس سليما ؛ إذ يغفل أيضاً الدراسة المقارنة بين نشأة النحو من ناحية ، والمستويات الفكرية في غيره من العلوم في فترة النشأة من ناحية أخرى ، كما يهمل ما هو ثابت ومعروف في نشأة العلوم مما يمكن تسميته بسرعة التطور المضاعفة ، التي تنقل العلوم في جيل واحد نقلة تساوي عمل أجيال طوال تظل تتخبط حتى تهتدي .

(١) تاريخ آداب العرب ١/٢٦٦

الفصل الثانى

التحليل الموضوعى

إذا كنا قد رفضنا ـ فى الفصل السابق — التسليم للقدماء او للمحدثين فلأننا نعتقد أن دراسة الظروف الموضوعية يجب أن تعتمد على ركيزتين :

الأولى : فهم طبيعة المرحلة التى تنسب إليها نشأة الدراسات النحوية

والثانية : فهم طبيعة اللغة التى نتناول نشأة نحوها بالدرس .

وفى فهم طبيعة المرحلة ينبغى أن نضع فى الاعتبار الأساس الحضارى باعتباره مفتاحا لكل أنماط النشاطات الذهنية الإنسانية فى تلك المرحلة التاريخية ، إذ إن أخذنا بالتفسير الحضارى يعطينا إمكانيات تناول جديدة ، تتسم بالتكامل فى النظرة إلى الدوافع التى حدت بالمسلمين إلى التفكير فى وضع العلوم المختلفة ومن بينها تناول اللغة — أو بتعبير أكثر دقة — تناول نصوص اللغة المقدسة بالضبط ثم بالتقعيد .

ونحن نعنى بالإحساس الحضارى الظروف التى نتجت عن ظهور الدين الجديد فى مكة ، وانتصاره فى المدينة ، ثم محاولته الناجحة الانطلاق من الجزيرة فى موجة الفتوح الواسعة ، ذلك أن ظروفا جديدة وجدت ، ووجد بوجودها أساس صلب لبناء حضارة إنسانية جديدة ، ذلك أن الدين والمعتقدات الدينية دائما هى أهم عناصر تكوين الأمم ، إذ تبدأ مع كل مبدأ دينى جديد حضارة جديدة ، وما انفكت المسائل الدينية تكون من المسائل الأساسية فى قديم الأجيال وحديثها ،

« ولايغيب عن البال أن جميع النظم السياسية والاجتماعية منذ بدء الأزمنة التاريخية قامت على معتقدات دينية »[1]

وليس تأثير الدين محصورا فى النظم السياسية والاجتماعية وحدها ، فالدين تأثير جوهرى على الحياة الفكرية ، ومن ثم يكون تأثيره على روح الحضارة فضلا عن مقوماتها ، وتأثير الدين فى الحياة الفكرية للإنسان وللأمة يصل إلى درجة تكاد تجعل من الدين والثقافة الإنسانية وجهين لعملة واحدة ، كما يقرر إليوت أنه « لايمكن أن تظهر ثقافة أو تنمو إلا وهى متصلة بدين .. فإن نمو الثقافة ونمو الدين فى مجتمع لاتؤثر فيه عوامل خارجية أمران لايمكن فصل أحدهما عن الآخر ... ومع اعتقادنا بأن الدين الواحد يمكن ان يمد ثقافات شتى يحق لنا أن نسأل : إن كان من الممكن أن تظهر ثقافة ما إلى الوجود ، أو تحافظ على نفسها ، بدون أساس دينى ، ولنا أن نمضى إلى أبعد من ذلك فنسأل : أليس ما نسميه ثقافة شعب ما ودين هذا الشعب مظهرين مختلفين لشىء واحد ، إذ الثقافة فى جوهرها تجسيد — ونحن نستعمل هنا تعبيراً مقاربا — لدين الشعب »[2]

وهذا صحيح إلى حد بعيد بالنسبة للإسلام ، فمختلف ضروب العلم الإسلامى قد تأثرت — نشأة وتطورا — بالعقيدة الإسلامية ؛ إذ انبثقت عن الاسلام — كعقيدة — خصائص فكرية كان لها أعمق الأثر فى الفكر الإسلامى من بعد ، كما صدرت عن الإسلام — كتنظيم عملى — قوة هائلة استطاعت أن تغير الكثير من الوجود العربى بل ومن الوجود الإنسانى على كل أرض ، وذلك بحكم الضرورة التى تصحب العقائد الكبرى ، وتصوغ فى وجدان معتنقيها منهجا خاصا اولون به إعادة صياغة الحياة والفكر معا .

---

(١) السنن النفسية لتطور الأمم ١٥٧

(٢) ملاحظات نحو تعريف الثقافة ٣٢

ولعل تأثير الإسلام واضح لاريب فيه فى نشأة علوم مختلفة ، كالتفسير والحديث والقراءات والفقه والتاريخ ، فهذه العلوم الخمسة لم توجد إلا بعد الإسلام ، وربما كانت العلوم الأربعة الأولى مسلماً بنشأتها بعد الإسلام تلبية لحاجات المجتمع الجديدة ، وكذلك الأمر فى التاريخ أيضاً ، لأن التناول لأحداث الماضين بغية إعادة تصورها فى دقة بالغة لم يعرفه العرب قبل الإسلام ، وكثير من الأحداث الماضية — فى نظر الجاهليين — كان مشوبا بتأثير أسطورى ، وذلك يتكشف من خلال سبيلين لاشك فيهما : أولهما ما تنطق به الأمثال العربية من أحـــداث أسطورية[1] وثانيهما ما رواه بعض المؤرخين الإسلاميين عن فترة ماقبل الاسلام من أحداث ، محكومين فى رواياتهم بالمأثور من هذه الفترة ذاتها[2] وكانت هذه المأثورات فى جملتها أحداثا غير واقعية ، تحمل أحكاماً عامة غير موضوعية ، حتى إذا انتقل هؤلاء المؤرخون إلى تسجيل الأحداث الإسلامية ، اتسم عملهم — فى مجموعه — بالدقة ، وتميز بالتحليل الدقيق للأحداث ، ولمصادرها ، ومن ثم وجدنا نقد المتن إلى جوار نقد السند . وإذاً فإن هذا التناقض بين أسلوب التناول للأحداث الإسلامية وأسلوب معالجة الأحداث الجاهلية — أو أحداث ماقبل الإسلام على وجه العموم — يكشف عن عمق التأثير الاسلامى فى مادة علم التاريخ ، وفى المنهج الذى سلكه المؤرخون لتسجيل هذه المادة أيضاً .

ومعنى هذا أن اتصال هذه العلوم بالإسلام اتصال عميق إلى أبعد غايات العمق ؛ إذ إن الإسلام لم يقدم لها مادتها فحسب بل شكل لها منهجها أيضاً .

فالطرق المختلفة لتناول النصوص القرآنية ، تلك الطرق التى صاحبت نشأة التفسير فى صورته الأولى ، والتى يمكن أن تعد أساس التفسير المـــذهبى من

---

(١) انظر مجمع الأمثال الميدانى ١/١٥٢ ، ١٨٠ ، ٢/١٤٥ — ١٤٦

(٢) انظر الجزء الأول من تاريخ أبى الفدا المسمى بالمختصر فى أخبار البشر ، جزاء الأول من التاريخ الكبير لابن عساكر

بعد[1] ، تنبثق أساساً عن النظرة الإسلامية للنص القرآنى ،وهى نظرة تتسم بأنها محددة النتائج ، وتلتزم لذلك بما تفرضه هذه النتائج من تحديد للمقدمات .

والأساليب المحددة فى دراسة الحديث ، والتى تهدف إلى الثقة بصحة النص المنسوب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، قد اتبعت منهجا أصبح سمة بارزة من سمات الفكر الإسلامى ، ونعنى به دقة السند ، الذى أصبح بدوره محور علم من أعظم العلوم العربيه الإسلامية وأكثرها أصالة ، وهو علم مصطلح الحديث .

وأما الفقه فميدانه مختلف،ولكنه يتفق فى الهدف مع فروع الفكر الإسلامى؛ إذ إن ميدان الفقه هو حياة الناس الواقعية ، بما فيها من أحداث وعلاقات ، وهدفه صب هذه الحياة الواقعية فى قوالب دينية ، بحيث تعد امتدادا للأفكار الدينية وليس إضافة لها تتسم بالاختلاف ؛ أو منطلقة عن مصدر يتصف بالتقابل ، ومنهج الفقه الإسلامى — لذلك — مزيج من مناهج التفسير والحديث ؛ اهتمام بالنصوص أولا ، بما يفرضه هذا الاهتمام من تحليل لها ونقد لمصادرها ، ثم تطابق النصوص والفكر ثانياً ، بما يلزمه هذا التطابق من وضوح الفكر والتزام بالهدف معا .

وهذا كله يلفت النظر إلى وجود مايمكن أن يسمى بالمنهج الإسلامى . وقد حكم هذا المنهج الكلى مناهج علوم كثيرة وأثر فيها بالإضافة إلى ما قدم لهذه العلوم من مادة . وعلى الرغم من أن هذا المنهج الإسلامى يحتاج إلى دراسات كثيرة تتوفر عليه لاستكشاف خصائصه ومقوماته ، ثم إدراك أهدافه وغاياته . فإن من الممكن أن نلمح فى هذا المنهج خصيصتين هامتين :

أولى هاتين الخصيصتين اللتين يتميز بهما المنهج الإسلامى هى الاهتمام

---

(١) انظر مذاهب التفسير الإسلامى ص٤ ومابعدها .

بالنصوص ، وقد فرض هذا الاهتمام على العلماء فى العلوم المختلفة مراحل متعددة فى معالجتها :

المرحلة الأولى منها هى ضبط النصوص .

والمرحلة الثانية هى جمع النصوص المختلفة الموحدة الموضوع أو الموحدة المصدر .

والمرحلة الثالثة هى تقويم النصوص للتثبت من نسبتها إلى أصحابها ، وقد استخدم العلماء فى هذا التقويم :

نقد السند ، وهو مايمكن أن يصطلح عليه بالنقد الخارجى .

ونقد المتن ، وهو مايمكن الاصطلاح عليه بالنقد الداخلى .

والخصيصة الثانية من خصائص المنهج الإسلامى هى حرصه على الاتساق ، وهو — على تنوع أشكاله — يمتد على جبهتين .

إذ هو اتساق فى النقل ، ثم اتساق بين العقل والنقل ، أى أنه اتساق فى الفكر وفى الواقع معاً ، وبين الفكر والواقع جميعاً .

وقد هدف المنهج الإسلامى بهاتين الخاصتين فيه إلى تحقيق هدفين ضروريين فى الدعوة الإسلامية ؛ وأول هذين الهدفين هو التكامل بين الفكر والمادة ، وبين الإنسان والمجتمع[1] ، فالإنسان — فى الإسلام — ليس مادة خالصة كما ليس فكراً مجرداً ، بل هو مزيج منهما ، والتوازن بينهما هو مهمة الإنسان بإرادته وقدرته ، والكون فى الاسلام ليس هذه الصور الكثيرة المتعددة المنطلقة عن المادة السائرة بحسب قانون الذرات وحده ، وهو أيضا ليس شيئا واحداً منطلقاً عن روح إلهية تتخلله ، بل هو أشياء مختلفة تصدر عن قدرة عليا واحدة ، ومهمة الإنسان هى الاتساق مع هذه الأشياء وهذه القدرة جميعا . والله — فى الإسلام — ليس مباطنا للإنسان والكون ، ومن ثم فهو لا يتعدد بتعدد الإنسان وما فى

(١) انظر بحثنا عن المنهج الاسلامى ، خصائصه وغاياته

الانسان من صور ، وهو أيضاً ليس قوة مجهولة تفقد الاتصال بينها وبين الكون والانسان، بل هو قوة عليا يحسها الناس بآثارها فى الكون والانسان جميعاً .

وثانى هذين الهدفين هو الشمول ، فالاسلام لايقف عند الانسان كفرد بل يتناول الفرد والآخرين جميعاً ، والاسلام لاينظم حياة الانسان الروحية وحدها بل ينظم له حياته المادية أيضاً ، والاسلام لم يقف عند هذا الجنس العربى الذى حمل لواءه بل انطلق يحرر الانسان فى كل أرض وعلى كل تراب ، هذه النظرة الشاملة تركت فى المنهج الاسلامى ما يقابلها من شمولية التناول ؛ فالحقائق فى هذا الفكر ليست نسبية بل مطلقة ، والعلوم المختلفة فيه لا انفصام بينها ، بل تهدف جميعاً إلى هدف مشترك ؛ هو أن يحيا الانسان واقع الاسلام ، ويفرضه على كل واقع .

وقد تأثرت دراسة اللغة — عند المسلمين — بالمنهج الإسلامى ، كما تأثرت المادة اللغوية بالاسلام ، فنشأة الدراسات اللغوية بدأت متناثرة بحاجات دينية ، وضرورات اجتماعية ناتجة عن الدين ، وإن كانت تختلف فى الأسباب المباشرة عن غيرها من العلوم الاسلامية . ومصدر هذا الاختلاف يعود إلى أن محور الدين هو القرآن ، والقرآن نص عربى ، ومعنى ذلك أن العرب وحدهم هم الذين يستطيعون فهمه والعمل بما يدعو إليه من تعاليم ، ولكن القرآن لا يخاطب العرب وحدهم وإنما يتناول الأمم جميعاً . على اختلاف أجناسها ومواطنها ولغاتها ، وهذا يفرض بالضرورة أحد حلين لا ثالث لهما :

فإما نقل القرآن إلى هذه الأمم ، وإما نقل هذه الأمم إلى القرآن .

ومنذ بداية التاريخ الاسلامى رفض المسلمون نقل القرآن إلى لغات الأمم المفتوحة ، فالتاريخ لايذكر له ترجمات تمت إلى لغات غير عربية ، ومن العبادات الاسلامية ذاتها — التى هى فرائض على كل مسلم ومسلمة راشدين — مالا يمكن أن يقبل

بغير النص العربى ، فلم يكن بد إذا من نقل هذه الأمم الى القرآن والعربية ، ولربما كشف ذلك عن موقف فذ فى تاريخ العقائد الكبرى ، فإن تعدد الترجمات كان يحمل خطر الانقسام فى الدولة الإسلامية ، إلى جوار ما يحمله من أخطار شتى تهدد العقيدة ، بحكم وجود فوارق لا يستطاع إلغاؤها بين اللغات ، وما يتبعها من لزوم الاختلاف بين الترجمات [1] .

وقد فطن الآلوسى إلى قريب من هذا فى تعليله لوحدة لغة النص المنزل ، وذلك فى تفسيره لقول الله تعالى فى سورة ابراهيم (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) يقول [2] : « (ليبين) ذلك الرسول (لهم) لأولئك القوم الذين أرسل اليهم ما كانوا به فيتلقوه منه بسهولة وسرعة ، فيمتثلوا ذلك من غير حاجة الى الترجمة ، وحيث لم تتأت هذه القاعدة فى شأن سيدنا محمد (ﷺ وعلى اخوانه المرسلين أجمعين) لعموم بعثته ، وشمول رسالته الأسود والأحمر والجن والبشر على اختلاف لغاتهم ، وكان تعدد نظم الكتاب المنزل إليه — صلى الله وسلم عليه — على حسب تعدد ألسنة الأمم أدعى إلى التنازع واختلاف الكلمة ، وتطرق أيدى التحريف » . وليس تعدد نظم الكتاب وحده هو الذى يحمل أخطار « التنازع واختلاف الكلمة وتطرق أيدى التحريف » وإنما تنبعث هذه الأخطار أيضاً عن الترجمة ، إذ « أن الحاجة إلى الترجمة تتضاعف عند التعدد ، إذ لابد لكل طائفة من معرفة توافق الكل حذو القذة بالقذة ، من غير مخالفة ولو فى خصلة فذة ، وإنما يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحدا أو متعدداً وفيه من التعذر ما فيه [3] » . وإذا فأى محاولة لنشر نص مترجم ستصحبه هذه الأخطار كلها ، وبخاصة فى هذه الفترة التاريخية الحاسمة

---

(١) أنظر دلالة الألفاظ ١٦٤—١٦٥ ، المقابسات ٧١ ، والإمتاع والمؤانسة ١/١٢٣ ، أسرار البلاغة ٢٣ وبحثا جاحظا عن صعوبة ترجمة كتب الدين بصورة خاصة فى الحيوان ١/٧٧—٧٩

(٢) تفسير روح المعانى ١٣ : ١٨٥ .

(٣) روح المعانى ١٣/١٨٥ .

في تاريخ الاسلام ، ونمتى بها قبيل منتصف القرن الأول حتى ثمانينيات هذا القرن ، وهي الفترة التي شهدت مرحلة استقرار الموجة الاسلامية الأولى على عهد عمر ، ثم عهد عثمان ، ومهدت للموجة الاسلامية الثانية في عهد الأمويين بعد عام الجماعة ، وهي مرحلة تحديد العلاقات داخل الدولة الاسلامية والمجتمع الإسلامي معا .

لم يكن بد إذا ازاء هذا كله من نقل هذه الأمم إلى القرآن والعربية، فكيف يتم هذا النقل بغير تناول هذه اللغة — التي نطق بها القرآن ، والتي تحمل التراث الاسلامي المقدس — بالتقعيد ، ليتيسر تعليم هذه اللغة لهذه الأمم ، ثم ليمكن من بعد خلق وحدة الفكر التي ترتكز عليها — وتدعمها في آن واحد — وحدة العقيدة .

ولكن نقل هذه الأمم إلى القرآن يتطلب أولا وقبل كل شيء توحيد النص القرآني ، وهذا يسلم إلى نتيجة بالغة الأهمية ، وهي أن الحقائق التاريخية للمجتمع واللغة جميعا تقرر أن المعقول ألا تنشأ الدراسات اللغوية على وجه العموم بصورة موضوعية إلا بعد عهد الخليفة الثالث عثمان سنة ٣٥ هـ ،لأن عثمان هو الذي وحد النص القرآني حين جمع الناس على مصحف واحد ، [1] فمهد بذلك الطريق إلى ضبط النص ضبطا دقيقا ، وهي الخطوة التي فتحت باب الدراسات النحوية بأسرها .

وإذا كان الأمر كذلك فإنه من الطبيعي أن نرفض تلك الرواية الساذجة التي قررها ابن فارس ، من أن النحو في اللغة قديم ، ثم أتت عليه الأيام ، وقل في أيدي الناس ، حتى جاء أبو الأسود فأحيا ما اندرس منه [2] ، فذلك

---

(١) انظر . الفهرست ٣٧

(٢) انظر : الصاحبي ٨ ، ١٠

كله غير صحيح ، إذ هو فضلا عن كونه دعوى لا دليل عليها ، يغفل الظروف التاريخية التى حتمت التفكير فى علوم مختلفة ، واستلزمت بصورة خاصة ضرورة التقعيد للغة .

ومن الطبيعى أيضاً أن نرفض أن يكون ظهور اللحن ، أو شيوعه هو السبب الأساسى فى نشأة الدراسات النحوية وإلا لظهرت محاولات نحوية ، أو قضايا تتصل بظواهر اللغة التركيبية ، فى العصر الجاهلى ، أو فى عهد النبى وأبى بكر وعمر ، وهو مالا نجد له أصلا فيما ترويه كتب التاريخ ومصادر اللغة ، بغير نص واحد نسب — فى ظاهره — نشأة النحو إلى عهد عمر ، وهو نص ينبغى أن نقف عنده قليلا ، لتحليله وإدراك وجه الصواب فيه .

يقول ابن الأنبارى : (١)

« ويروى . . . أنه قدم أعرابى فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : من يقرؤنى شيئا مما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ! فأقرأه رجل سورة براءة ، فقال : (أن الله برىء من المشركين ورسوله) بالجر ، فقال الأعرابى : أوقد برىء الله من رسوله ؟ ! إن يكن الله تعالى برىء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فبلغ عمر عليه السلام مقالة الأعرابى ، فدعاه فقال : يا أعرابى أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! فقال : يا أمير المؤمنين ، انى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن ، فسألت من يقرؤنى ، فأقرأنى هذا سورة براءة ، فقال : (أن الله برىء من المشركين ورسوله) فقلت : أوقد برىء الله تعالى من رسوله ، إن يكن الله تعالى برىء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال عمر رضى الله عنه : ليس هكذا يا أعرابى ، فقال : كيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : (أن الله برىء من المشركين ورسوله) . فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ

---

(١) نزهة الألباب ٧ ـ ٩ .

مما برىء الله ورسوله منهم ، فأمر عمر رضى الله عنه أن لا يقرىء القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع النحو » .

هذه هى الرواية الوحيدة التى نسبت نشأة النحو إلى عهد عمر ، وقد نقلها عن ابن الأنبارى ابن قاضى شهبة[1]، ثم عن ابن قاضى شهبة نقلها السيوطى[2]. وابن الأنبارى من علماء القرن السادس ، إذ توفى عام ٥٧٧ هـ[3] . وإذن فهناك فترة طويلة جدا تتجاوز خمسة القرون لم ينسب فيها أحد وضع النحو إلى عهد عمر بن الخطاب ، ثم ان ابن الأنبارى يصدر الرواية بصيغة تضعف من قيمتها ، فهو لا يذكر عمن روى ولا ممن أخذ ، وابن الأنبارى - فوق هذا كله - ممن لا يتحرزون ولا يحللون ، إذ يذكر روايات كثيرة يناقض بعضها بعضا ، دون أن يعبأ بتحقيقها ، فهو يضيف إلى هذه الرواية التى تنسب وضع النحو إلى أبى الأسود بأمر من عمر روايات تسند السبب فى وضع النحو إلى على ابن أبى طالب ، [4] ، وإلى زياد بن أبيه [5] ، كما يسند وضع النحو فى روايات أخرى إلى عبد الرحمن بن هرمز ونصر بن عاصم[6] .

وهو وان نقد بعض هذه الروايات كما فعل فى الرواية التى تنسب وضع النحو إلى عبد الرحمن بن هرمز ونصر بن عاصم فإنه فى نقده يعتمد على الروايات أيضا . دون تحليل لسند هذه الروايات أو مادتها .

---

(١) طبقات النحويين واللغويين (مصور) لوحة ٢٨٤/٢ .

(٢) الاخبار المرويه فى سبب وضع العربية (مخطوط) ورقة ٤٦ أ

(٣) انظر : شذرات الذهب ٢٥٨/٤ ، طبقات الشافعية ٢٤٨/٤ . أنباه الرواه ١٧١/٢ ، فدوات الوفيات ٥٤٧/١ .

(٤) انظر : نزهة الألبا ٣ ، ٤ ، ١٣ .

(٥) نزهة الألبا ١٤ .

(٦) المصدر السابق .

وهذا كله يضعف من رواية ابن الأنباري ، فلعل ذلك الراوي المجهول قد اختلطت عليه الأسماء ، أو لعل في الرواية شيئاً من الزيادة ، وحتى على فرض صحة هذه الرواية فإنها لا تتناقض مع ما تحتمه الظروف الموضوعية من استبعاد البدء في الدراسات النحوية ، بأي صورة من الصور ، قبل عهد عثمان ؛ إذ من الممكن تفسير هذا النحو الذي أمر عمر أبا الأسود بوضعه بأنه ليس ما يعنيه الباحثون من تناول الظواهر التركيبية بالتقعيد والدرس ، بل هو النحو الذي ينبغي أن ينحوه قراء القرآن ، أي المنحى أو الاتجاه أو الطريقة التي يجب أن يتبعها معلمو القرآن في قراءته ، يؤيد ذلك ما نراه في أحد كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري ، من استخدامه للفظ (الإعراب) دون أن يحمل مضمونه الاصطلاحي ، إذ يقول عمر : « أما بعد ، فتفقهوا في الدين وتعلموا السنة ، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »[1] فالإعراب هنا بمعنى الإبانة، وعمر يقصد وضوح القراءة ، ويطلب إلى أبي موسى أن يكلف أبا الاسود بأن يعلم سكان البصرة كيف يبينون ويفصحون في قراءتهم لكتاب الله .

ولعل خير وقت اتضحت فيه هذه الحاجة الضرورية إلى تناول اللغة بالضبط ثم بالتقعيد بغية تيسير تعليمها لغير العرب ممن دخلوا في الإسلام، ثم ممن لم يسلموا، كان بعد استقرار الفتوح ؛ إذ أن ظروف الفتح لا تيسر لأي من الجانبين أن يفكر في شيء غير الحرب والقتال ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها وهدأت الأمور ، وعادت تلك العلاقات الطبيعية ظهرت الحاجة الماسة إلى لغة مشتركة بين هذه الشعوب المفتوحة من جانب ، وبين هذه القوى الفاتحة من جانب آخر ، ولكن العرب لم يكونوا غزاة كغيرهم من الفاتحين ، إذ كانوا يدركون أن هدفهم

---

(١) أنباه الرواه ١٦/١ .

الأساسي هو نشر كلمة الله بين هذه الشعوب المغلوبة ، وهكذا كان هناك دافعان قويان وضعا المشكلة اللغوية في محور التفكير .

أولهما دافع اجتماعي ، نشأ عن هذا الاختلاط بين القبائل العربية وبين غير العرب ، ولم يكن ممكناً أن يحدث هذا الاختلاط الاجتماعي ثم لا يتخذ له لغة تعبر عنه وتقضي حاجاته ، ولقد يتصور البعض أن القبائل العربية لم تختلط بالشعوب المفتوحة وأن الجيوش العربية ظلت محتفظة بطابعها العربي الخالص في تلك المدن التي أقيمت لها بعيداً عن مناطق التجمع السكاني في الشعوب المفتوحة[1] ، وهذا الكلام صحيح إلى مدى محدود ، فقد حرصت الجيوش العربية أول الأمر على الاقامة في مناطق شبه مقفلة ، ولكن ذلك لم يهون من قيمة هذه المشكلة اللغوية ، لأن هناك في تلك القواعد الكثير من العبيد والاماء والخدم والتجار والطهاة وغيرهم ممن كانوا يقدمون خدمات شتى للجيوش الإسلامية[2] . وهذه الطبقة الكبيرة التي احتاجت إليها الجيوش الفاتحة لم تلبث أن تضخمت ، حين دفع الاستقرار ألوف الناس إلى النزوح إلى تلك القواعد التي ما لبثت أن أصبحت المدن الكبرى في العالم الاسلامي .

وإلى جوار هذا الدافع الاجتماعي هناك دافع ديني أيضاً ، فإن العرب قد أرادوا أن ينشروا الإسلام بين هذه الشعوب المفتوحة ، ومحور الإسلام هو القرآن ، وهو نص عربي ، ومن الضروري على كل مسلم ومسلمة أن يقرأ منه آيات كل يوم ومن ثم لا بد له من الإلمام من اللغة العربية ولو بقدر يمكنه من فهم هذه الآيات . وهكذا أصبح تعلم اللغة قضية دينية إذ هي التي تمثل — في نظر القادة المسلمين — الوحدة الفكرية بين المسلمين جميعاً ، وهكذا لم يحدث

---

(١) انظر مادة (البصرة) في دائرة المعارف الاسلامية ١/٦٧٠ وما بعدها

(٢) انظر فتوح البلدان ، ٥٢٩ ، معجم البلدان ٢/١٩٩ وما بعدها .

حدث فى تاريخ اللغة العربية أبعد أثراً فى تقرير مصيرها من ظهور الاسلام ، ففى ذلك العهد ، قبل أكثر من ٣٠٠ عام ،عندما رتل محمد — صلى الله عليه وسلم — القرآن على بنى وطنه بلسان عربى مبين ، تأكدت رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد، كانت ذات دلالة عظيمة فى مستقبل هذه اللغة ، ولا ينحصر هذا فى المقام الذى أخذته العربية منذ ذلك الوقت فى العالم الاسلامى كافة ، من حيث صارت لغة الدين والحضارة على الاطلاق ، بل يتجاوزه بمقدار أعظم إلى النتائج التى تركتها غزوات الفتح على أيدى عرب البوادى تحت راية الإسلام فى لغتهم[1] » .

ولكن كلا هذين الدافعين قد أحدث أثراً مناقضاً للآخر . فإن الدافع الاجتماعى قد أسلم إلى خلق لغة مشتركة للتفاهم بين الأجناس المختلفة فى المجتمعات الجديدة فى الدولة الإسلامية ، وقد استعانت لغة التفاهم المذكورة بأبسط وسائل للتعبير اللغوى ، فبسطت المحصول الصوتى ، وصوغ القوالب اللغوية ، واستغنت بذلك عن مراعاة أحوال الكلمة وتصريفها ، كما ضحت بالفرق بين الأجناس النحوية . واكتفت ببعض القواعد القليلة الثابتة فى مواقع الكلام للتعبير عن علاقات التركيب »[2] . وفى الفكاهات المروية فى كتب التاريخ والأدب ما يمثل هذه اللغة المشتركة ، ومن ذلك ما روى من أن الحجاج قال لرجل من العجم نخاس : أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان ؟ فقال : شريكاتنا فى هوازها وشريكاتنا فى مداينها وكما تجىء يكون فقال الحجاج : ما تقول ؟ فسروا له ذلك ،[3] يقول الجاحظ : فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ

(١) العربية ١ .

(٢) العربية ٩ .

(٣) انظر : عيون الأخبار ٢ — ١٦٠ ، البيان والتبيين ١ — ١٦١ — ١٦٢ .

وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك ، يقول : شر كاؤنا بالأهواز والمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على وجوهها[١] .

وقالت أم ولد لجرير بن عطية الخطفي لبعض ولدها . وقع الجردان في عجان أمكم ، فأبدلت الذال من الجرذان دالا ، وضمت الجيم ، وجعلت العجين عجانا[٢] .

وقال بعض الشعراء في أم ولد له ، يتندر بلغتها .

أول ما أسمع منها في السحر   تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر
والسوأة السوآء في ذكر القمر[٣] .

وربما كانت هذه اللغة المشتركة التي فرضتها الظروف الاجتماعية فرضا هي السبب الأساسي في تحرير لهجات الخطاب بين القبائل العربية من كثير من قيود الصوغ والتركيب ، ثم كانت اللغة المشتركة واللهجات المتحررة هي الأساس الذي انبنت عليه اللهجات العربية في الأقاليم من بعد .

أما الدافع الديني فقد أحدث أثرا مناقضا لما أحدثه الدافع الاجتماعي ، إذ أدرك خاصة المسلمين أن المشكلة اللغوية قد فرضت نفسها على المجتمع ، وأنه لابد من حل سريع لهذه المشكلة ، يضمن وحدة هذا المجتمع وترابطه . وإذا ، كانت الدوافع الاجتماعية تدفع إلى تعدد اللغة المشتركة فإن من الواجب العمل على خلق لغة واحدة تشترك فيها هذه الأقاليم لتلبية حاجاتها مهما اختلفت مكوناتها ، وهكذا كان الأحساس الطبيعي بضرورة اللغة المشتركة عند جماهير الناس مسلمين وغير مسلمين .

---

(١) البيان والتبيين ١ — ٧٣ والخبر بصورة مغايرة في ٢ — ٢١٣ .
(٢) البيان والتبيين ٧٣/١
(٣) عيون الأخبار ١٦٠/٢ ، البيان والتبين ٧٣/١ .

ولعل أفضل مكان لتمثيل هذه الدوافع جميعاً كان العراق ، لانتشار القبائل العربية فيه فى حركة الفتوح الواسعة ، ثم لاختلاف لهجات هذه القبائل واللغة العربية من جانب ، ولهجات الشعب المفتوح ولغاته من جانب آخر ، ولم يكن الأمر بهذه الصورة من الوضوح فى هذه الفترة فيما بقى من الفتوح ، أما الشام فلأنها كانت « قد استعربت إلى حد كبير قبل الاسلام بواسطة القبائل العربية التى هاجرت إليها[1] » ومن ثم لم يجد جديد من الناحية اللغوية بعد فتحها ، وأما مصر فلم تهاجر إليها — فى هذه المرحلة — قبائل كثيرة ، ومن ثم لم تظهر مشكلة الاحتكاك اللغوى كما ظهرت فى العراق .

ولعل أصلح مكان فى العراق لتصوير هذا كله ، ومن ثم لنشأة الدراسات النحوية فيه ، كان البصرة ؛ فإن طبيعة المكان الذى أقيمت فيه لتكون نقطة التقاء الطرق الصحراوية الآتية من شبه الجزيرة والشام، والطرق الصحراوية المتجهة إلى فارس ، بالطرق البحرية الممتدة من المجرى الادنى ، للرافدين ، فيما بين البصرة وواسط شمالا فى دجلة والفرات ، قد ساعدت على تنوع تركيبها السكانى ، وتمده الأنماط الداخلة فى تكوين مجتمعها ، وهكذا سرعان ما تحولت القاعدة الجديدة التى أنشأها من القصب عتبة بن غزوان بعد أن استشار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عام ١٤ هـ سنة ٦٣٥ م[2] . لتكون نقطة تجمع للقبائل العربية المقاتلة ، ثم مركز تحضر تدريجى لهذه القبائل والتى لم يتجاوز عدد سكانها ثمانمائة رجل[3] ، سرعان ما تحولت إلى مدينة ضخمة ، فلم تلبث إلا قليلا حتى بلغ عدد سكانها ثلاثمائة ألف نسمة ،[4] وهذا العدد الضخم

---

(١) العربية ٨

(٢) فتوح البلدان ٤٢٠ ، التنبيه والاشراف ٣١٠ .

(٣) انظر : فتوح البلدان ٤١٩ ، ٤٢٠ ، معجم البلدان ٢/١٩٤ ، ١٩٧ .

(٤) انظر : دائرة المعارف الاسلامية مادة البصرة ١/٦٧٠ .

لم يكن من القبائل العربيـــة وحدها ، دون شك ، بل يشكل الموالى — وهو الاصطلاح الذى تدخل تحته الشعوب غير العربية — جزءا هاما فيه ، بحكم حاجات القبائل العربية القاتلة إلى من يعينها فى شئون حياتها اليومية ، وليس الأمر مجرد استنتاج تفرضه طبيعة الحياة فى تلك الفترة ، فقد صرح البلاذرى بأن عدد مقاتلة العرب أيام حكم زياد قد بلغ ثمانين ألفا ، بينما بلغ عدد عيالهم مائة ألف وعشرين ألف عيل[1] . وقد أيده فى ذلك ياقوت[2] — وعنهما أخذ البستانى فى دائرته[3] — فهذان مائتا ألف نسمة ، وبقى بين هذا العدد وبين ما ذكرته دائرة المعارف الاسلامية مائة ألف نسمة ، وهو — فى أغلب الظن — عدد هؤلاء الموالى وغيرهم ممن تحتاجه طبيعة الحياة فى قاعدة مجاهدة تحولت إلى مدينة كبرى .

هذا العدد الضخم من العرب — جندا وغير جند — ومن غير العرب من أبناء الشعوب غير العربية ، لابد أن يحس بالمشكلة اللغوية إحساسا عميقا ، يدفعه إلى خلق لغة مشتركة لتكون عشابه ؛ وسيلة للتفاهم بين ذوى اللهجات المتعددة واللغات المختلفة ، ولابد أن تصبح هذه اللغة المشتركة مبسطة القواعد إلى أبعد الحدود ؛ ليتيسر استخدامها فى مجال الحياة اليومية . ومن ثم لابد أن تتجرد من مراعاة الظواهر الأصلية فى اللغة العربية . وأبرز هذه الظواهر — بطبيعة الحال — الظواهر التركيبية ، وأوضح الظواهر التركيبية دلالة — وأصعبها قواعد فى الوقت نفسه — ظاهرة التصرف الإعرابى .

---

(١) فتوح البلدان ٤٢٩ .

(٢) معجم البلدان ٢/ ١٩٩ .

(٣) دائرة معارف البستانى ٥/٤٠٤ .

وفى مقابل هذا الدافع إلى خلق لغة مشتركة غير خالصة العروبة[1] ــ لحل المشكلة اللغوية ــ لابد من أن يبرز حل آخر ، وهو محاولة جعل العربية هذه اللغة المشتركة ، ولا سبيل إلى ذلك بغير وضع قواعد لها ، لتصبح هذه اللغة أساس وحدة الفكر ، ودعامة لوحدة العقيدة معا .

معنى هذا كله أن الظروف كانت مواتية ــ فى أخريات عهد عثمان بن عفان ــ للتصدى لهذه العقبة الأساسية التى تواجه الفكر الاسلامى جميعا . ونحسب أن التحدى اللغوى الذى واجه المسلمين قد دفعهم دفعا إلى أن يواجهوه فى مجالين متصلين ومتكاملين ؛ أما أولهما فيمثل العلاج السريع للمشكلة ، ونعنى به ضبط القرآن ضبطا دقيقا حتى لا يخطىء فيه قارئوه، وأما ثانيهما فهو حل المشكلة حلا جذريا على المدى البعيد ، وهو دراسة اللغة العربية وفهم ظواهرها، وصب هذه الظواهر فى كليات تشير إليها وتدل عليها ، لتعرف بها وتتعلم عن طريقها .

والتصدى لهذا التحدى اللغوى يتطلب وعيا عميقا للقرآن واللغة معــا ، ويستدعى أن يكون من يتصدى لحل هذه المشكلة حافظا جيــد الحفظ ، ولغويا واسع الدارية باللغة .

---

(١) من الظواهر التى تثبت خروج اللغة المشتركة المستخدمة فى البصرة عن أساليب اللغة العربية ، اصطلاح أهل البصرة أن يزيدوا فى اسم الرجل الذى تنسب إليه القرية ألفا ونونا نحو قولهم : طلحتان : نهر ينسب إلى طلحة بن أبى رافع ، خيرتان : منسوب إلى خيرة بنت ضمرة القشيرية ، مهلبان : منسوب إلى المهلب بن أبى صفرة » ــ وفى معجم البلدان عشرات من النماذج التى ينسب فيها بزيادة ألف ونون ، لا باستخــدام ياء النسب ، وزيادة الألف والنون للنسبة أسلوب فارسى .

انظر : معجم البلدان ٢/٢٠٠ــ٢٠١ .

وانظر أيضا : فتوح البلدان ٤٤٣ ــ ٤٤٥ ، ٤٥٠

ومن المؤكد أن أبا الأسود هو الذى قام بعلاج الجانب العاجل من المشكلة اللغوية ، فقام بضبط المصحف ، والحقائق التاريخية تؤكد أنه كان أول من نقط المصحف ، أى تناوله بالضبط عن طريق النقط ، وليس فيما روى تاريخياً خلاف فى دور أبى الأسود الرائد فى هذا المجال (١) ، وهو عمل يكشف عن أصالة فى الفهم وقدرة على الابتكار ، وبراءة من التبعية والتقليد .

وإذا كان أبو الأسود هو الذى قام بالعلاج السريع للمشكلة اللغوية ، وهو ضبط النص القرآنى ، فهل هو أيضاً الذى قام بريادة الدراسات النحوية ، فوضع بذلك الأسس الأولى للحل الجذرى للمشكلة ؟

نحسب أنه ينبغى أن نحدد معنى (الواضع الأول للنحو) ليكون تمهيداً طبيعياً لمعرفة أبعاد هذا الدور التاريخى . وفى تصورنا أن الواضع الأول إنما يعنى أول من ارتاد الطريق إلى الدراسات النحوية ، ولا يشترط أن يكون قد وضع قواعد نحوية محددة ، وذلك يعنى بالضرورة أن ريادة الدراسات النحوية يمكن أن تكون بملاحظة الظواهر اللغوية وحدها ، دون محاولة للتقعيد لهذه الظواهر .

فاذا نظرنا إلى الواضع الأول بهذا المعنى — فسنجد أن شخصيات ثلاثة هى التى تنسب إليها هذه الأولية ، بصورة أساسية ، إذا نحينا شخصية رابعة ، وهى شخصية الامام على ، ليس لوضوح الهدف السياسى من نسبة هذه الأوليه اليه فحسب ، بل لأن طبيعة الظروف السياسية وعمق التحولات الاجتماعية التى جابهت عليا كرم

---

(١) نلحظ أنه لا خلاف فى نقط أبى الأسود المصحف ، والخلاف بين الروايات التى ذكرت ذلك محصور فى العهد الذى تم فيه هذا الضبط ، ومن أسند إلى أبى الأسود القيام به .
انظر : نزهة الالباء ١٠ — ١١ ، مراتب اللغويين ١٠ ، الفهرست ٦٠

الله وجهه كانت من العجلة بحيث فرضت عليه مواجهتها، وشغلت فكره — دون شك — عن الالتفات إلى غيرها .

وهذه الشخصيات التي تنسب إليها الروايات التاريخيه أولية النحو هي : أبو الأسود الدؤلي ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز .

ونلحظ — أولا — أن أول رواية نسب فيها إلى هذه الشخصيات الثلاثة وضع النحو كانت رواية السيرافي [1] المتوفى سنة ٣٦٨ هـ . أي بعد قرابة قرون ثلاثة ، لم يذكر فيها أحد عن نصر بن عاصم أو عبد الرحمن بن هرمز شيئاً .

ثم نلحظ — ثانياً — أن الرواية التي استند إليها السيرافي في نسبة احتمال وضع النحو إلى نصر بن عاصم قد حملها السيرافي أكثر مما تحتمل ، فهي لا تعدو أن تكون — على صدقها — رأيا فرديا منسوبا إلى خالد بن مهران المعروف بخالد الحذاء ، وفي الرواية أيضاً تردد يحمل على الشك فيها جملة ، إذ يتناول صحة اسم راويها .[2]

ثم نلحظ — ثالثاً — على رواية السيرافي التي استند إليها — أيضاً — في التشكيك في نسبة أولية النحو إلى أبي الأسود ، ونسبته إلى عبد الرحمن بن هرمز أنها — بدورها — رأي فردي منسوب إلى أبي النضر [3] ، وليست الآراء الفردية مما يعول عليها كثيرا في صحة الحقائق التاريخية ، وبخاصة حين تتعارض مع روايات أكثر قوة ؛ توفر على دعمها العقل والنقل معاً .

---

(١) أخبار النحويين البصريين ١٠
(٢) السابق ١٥ — ١٦
(٣) المصدر نفسه ١٦

وإذا بهذه الروايات التي استند إليها السيرافي تحمل في نفسها بذور الشك فيها، وهي — بذلك — ترجح كفة أبي الأسود في ارتياده لهذا العلم من علوم اللغة. فإذا حللنا الامكانيات الثقافية والنفسية ، لهذه الشخصيات الثلاثة ، تأكد أن أبا الأسود هو رائد الدراسات النحوية .

فنصر بن عاصم أحد القراء ، وكذلك عبد الرحمن بن هرمز ، وان كان ابن هرمز يضيف إلى القراءة علماً بأنساب قريش ، ومعنى هذا أن كلا منهما ذو ثقافة محدودة لا يتصور فيها ممارسة العمل الفكري إلا متابعة لا ابتكاراً ؛ بحكم نوع الثقافة التي تحملها العقلية ، ومن ثم تصوغ أبعادها وتؤثر في مجالات اهتماماتها .

وأما أبو الأسود (١) فهو انسان ملم إلى حد كبير بثقافة عصره ؛ فهو يحفظ القرآن ، ويروي الحديث ، ويحيط باللغة ، ويقول الشعر .

---

(١) في اسمه ونسبه خلاف كثير ، فقيل اسمه ظالم بن عمرو ، وهي رواية كثير من المؤرخين ، وقيل بل عمرو بن ظالم ، ذكره أبو الطيب في رواية له عن عمر بن شبة ، وأبوه هو : عمرو بن سفيان ، كما ذكر ابن سلام والجاحظ وليس عمرو بن جندل كما روى ابن قتيبة . وذكر ابن سلام في نسبه أن جده (ابن عمرو بن جندل بن يعمر بن نفاثة بن حلس بن ثعلبه بن عدي بن الدئل) أما أبو الفرج فيذكر في نسبه — مخالفاً لابن سلام — أنه (ابن جندل بن يعمر بن حلس بن نفاثة بن عدي بن الدئل بن بكر بن عبد مناه بن كنانة) .

وهو منسوب إلى الدئل بن بكر — بكسر الهمزة كما ذكر الاصمعي فيما يرويه أبو الطيب — وانما فتحوها للنسبة كما نسبوا إلى تغلب وإلى يثرب ، لئلا تتوالى الكسرات ، والدئل أبو قبيلة من كنانة ، سمي باسم دابة يقال لها الدئل بين ابن عرس والثعلب .

ويرى السيرافي جواز تخفيف الهمزة ، فيقال : الدولي ، بقلبها واوا محضة ، كما

أما حفظه للقرآن فيتضح من أن عمر وكل إليه توضيح نسيج القراءة المثلى كما ذكرنا من قبل ، ثم يتأكد من أنه هو الذى أسند إليه ، فى عهد زياد أو ابنه

يقال فى جؤن : جون ، وقد يقال : الديلى بقلب الهمزة ياء حين انكسرت فاذا انقلبت ياء كسرت الدال لتسلم الياء كما يقال : قيل وبيع .

ويخطىء أبو الطيب هذه النسبة الأخيرة ، لأنها تنسب أبا الأسود إلى غير قبيلته ، وذلك لأن الدئل ثلاثة ، الدئل فى كنانة — وهم رهط أبى الأسود — والدول فى حنيفة ، والديل فى عبد القيس . وأبو الطيب متأثر بابن سلام ، الذى يروى عن يونس ، وهذه التفرقة تفهم من كلام ابن السكيت أيضاً .

قيل : ولد فى الجاهلية ، وذكر أبو عبيدة أنه أدرك أول الاسلام ، وشهد بدراً مع المسلمين ، وقد استعمله عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب .

وقد اختلف فى وفاته أيضا . قيل توفى سنة تسع وستين عن خمس وستين سنة ، وقيل سنة سبع وستين عن خمس وثمانية سنة ، وقد ذكر ابن خلكان فى وفاته رأياً شاذاً ، وهو أنه توفى فى خلافة عمر بن عبد العزيز — بين سنتى تسع وتسعين واحدى ومائة — ولم يذكره غيره . وأما ما فى تاج العروس من أنه مات سنة ١٦٩ فهو خطأ مطبعى لا شك فيه .

انظر فى ترجمته : الطبقات الكبرى ٧/٩٩ ، طبقات فحول الشعراء ط المعارف ١٢ — ١٣ ، ط السعادة ٩ — ١٠ ، البيان والتبين ١/١١٠ ، والشعر والشعراء ٢٨٠ — ٢٨١ ، المعارف ٩٢ ، مراتب النحويين ٧ ، الاغانى ١٢/٢٩٧ ، اخبار النحويين البصريين ١٠ ، شرح كتاب سيبويه للسيرافى ١/٢٠٨ طبقات النحويين واللغويين ١٢ ، معجم الشعراء ١٥١ ، امالى السيد المرتضى ١/٢١٢ — ٢١٤ ، جمهرة أنساب العرب ١٧٥ ، جمع الجواهر ٢٠٦ ، نزهة الالبا ٦ ، معجم الادباء ١٢/٣٤ الكامل لابن الاثير ٤/١١٩ ، ٢٠٨ ، انباه الرواة

عبيد الله[١] ، ضبط النص القرآنى ، ولا يتصور أن يوكل ذلك لغير خبير باللغة وبالقرآن معا .

وأما اتصاله بالحديث فمعروف، وان لم يذكره كثير ممن أرخوا له، وهو يروى عن عمرو على وأبى ذر وابن عباس وأبى ابن كعب وابن مسعود ومعاذ وأبى موسى والزبير بن العوام وعمران بن حصين ، ويروى عنه أمية ويحيى بن يعمر وعبد الله ابن يزيد وابنه أبو حرب وعبد الله بن بريدة وعمر بن عبد الله مولى عفيرة وسعيد ابن عبد الرحمن بن رقيش[٢].

وإلمام أبى الأسود باللغة مشهور بين العلماء ، وإحساس ابى الأسود بقدرته

= ١٣/١ ،وفيات الاعيان ٢١٦/٢ ، تلخيص أخبار النحويين لابن مكتوم ٤، سرح العيون ١٥٨ ، مرآة الجنان ٤٤/١ ، ٢٠٣ — ٢٠٥ ، البداية والنهاية ٣١٢/٨ ، غاية النهاية فى طبقات القراء ٣٤٥/١ ، طبقات النحاة واللغويين لابن قاضى شهبة ٢٨٤/٢ ، الاصابة ٢٣٣/٢ ، تهذيب التهذيب ١٠/١٢، النجوم الزاهرة ١٨٤/١، بغية الوعاة ٢٧٤ ، المزهر ٣٩٧/٢ ، تاريخ الخلفاء ١٨١ ، الاخبار المروية فى سبب وضع العربية ٤٦ أ — ٤٧ ب الوسائل إلى مسامرة الاوائل ٣٥ ، شذرات الذهب ٧٦/١ ، خزانة الادب ٣٦/١ .

وانظر فى نسبته أيضا إصلاح المنطق ١٨٦، ١٩٠، ٢٤٤، الانساب للسمعانى ٢٢٣ أ مادة دأل فى اللســـــان ٢٢٣/١٥ والقاموس ٣٧٣/٣ ، تاج العروس ٢١٦/٨ — ٢١٧ .

(١) نزهة الالبا ٦ وما بعدها .

(٢) انظر . الأغانى ٣٠٠/١٢ — ٣٠١ . طبقات النحاة واللغويين (مصور) لوحة ٢٨٣/٢ . تهذيب التهذيب ١٠/١٢ .

عليها وتمكنه منها يتضح من حوادث كثيرة تروى عنه؛ منها ما يرويه الأصمعي قال : كان غلام يطيف بأبي الأسود يتعلم منه النحو ، فقال له يوما : ما فعل أبوك يابني ! قال : أخذته حمى ، فضختْه فضخا ، وطبختْه طبخا ، وفنختْه فنخا ، فتركته فرخا . قال : فما فعلت امرأة أبيك التي كانت تشاره . وتجاره . وتزاره . وتهاره . وتماره ! .

قال : خيرا ، طلقها وتزوج غيرها ، فحظيت ، ورضيت وبظيت .

قال : ما بظيت يا ابن أخي ! قال : حرف من العربية لم يبلغك .

قال : لاخيرلك فيما لم يبلغني منها [1] ويفسره ابن علان بقوله « عرفه بلطف أن ماجاء به مختلق » [2]

ترى أي اعتداد بالثقافة اللغوية تحمله هذه الكلمات !

وأبو الأسود شاعر جيد . وهذا جانب يكمل ثقافته اللغوية ويدل عليها ، وهو يجمل من شعره صورة لحياته ، فلا يقول في غير ما يتصل به من أحداث [3] ، وهذه ناحية تضيء جوانب من فكر أبي الأسود وسلوكه معا ، وشعره يتسم بسمتين تجعلان له طابعا خاصا ، وهما : صدق الإحساس وبساطة

---

(١) انظر . مراتب النحويين ٩ .

(٢) داعي الفلاح لمخبآت الاقتراح ٢٥ له

(٣) انظر نموذج لشعره في ديوان أبي الأسود ١١١ . و ١١٢ و ١١٤ — ١١٩ . والواقع أن ديوانه كله في أغراض حياته المباشرة ؛ فهو يتكلم عن لقحته وامرأته وخطيبته وغيرذلك من صور حياته . ولا نكاد نمر له على قصيدة مدح سوى بعض مقطوعات في علي ، وهي صادرة عن حب له واعتزاز به . لا عن طمع فيه .

التركيب ، وهاتان السمتان تصدران عن موقف نفسي وفني مما ، وهو الإخلاص والصراحة ، وقد كان هذا كله سمة حياته بأسرها .

فاذا أضيف إلى هذه القدرة الثقافية ، وهذه الطاقات النفسية ، ماعرف عن أبي الأسود من أنه « كان من أكمل الرجال رأيا وأسدهم عقلا » (١) حتى أن الخلفاء الراشدين الثلاثة : عمر وعثمان وعلي(٢) يستميلون به، برزت أمامنا شخصية متكاملة الأبعاد في السلوك والفكر جميعا ، ولعل من الطبيعي أن يكون ذلك كله مدخلا ضروريا لممارسة الاستقلال فكراً وسلوكا ، لا يحول بينه وبين ما يبتغي خوف من الناس ولا يقله عما يريد خشية من التقاليد ، فهو لا يخضع في تحليله للعلاقات لقيمة سائدة مهما كان انتشارها (٣) ، وإنما يحدد نمط سلوكه مع الناس بضمير أخلاقي صارم ، ويجعل رائده في ذلك كلمة حق تقال ، مهما كانت النتائج ، وهذه الكلمة لا تستمد قدرتها من شجاعة مجردة فحسب ، وإنما من قيم دينية تشع قدرة على مواجهة الصعاب .

وهذا كله يسلمنا إلى أن نقرر أن أبا الأسود ليس أصلح شخصية يمكن أن ينسب إليها وضع النحو فحسب ، بل هو — بالفعل — الواضع الأول للنحو العربي ، وأول من ارتاد — بوقفه الشجاع — الطريق إلى الدراسات اللغوية بأسرها .

---

(١) انظر . وفيات الأعيان ٦/٢ ٢

(٢) الأغاني ٢٩٧/١٢ .

(٣) الأغاني ٣٠٢/١٢

أولا . لأن الحوادث التاريخية تؤكد أنه قد نقط المصحف ، وهذا يعني أنه هو الذى تصدى لعلاج الجانب العاجل من المشكلة اللغوية التي صادفت المسلمين عقب الفتوح .

ونقط المصحف — في جوهره — ليس إلا ضبطا للنص القرآني ، فهو تناول لهذه الظاهرة اللغوية — ظاهرة التصرف الإعرابي — من خلال هذا النص الديني المقدس ، والهدف من ذلك هو ضبط هذا النص ، ولكن سرعان ما تحول هذا التناول إلى تحليل موضوعي للظاهرة ، وأصبح النص القرآني - مع قداسته - نصا لغويا يستعان به في تحليل الظواهر اللغوية والتقعيد لها ؛ أو بمعنى أكثر دقة ووضوحا ، حدث شيء من الانقلاب في دوافع التناول للقرآن ، فاذا كان الهدف — أول الأمر — كان محصورا في الرغبة في ضبط النص ، فإن الهدف قد تحول — مع الاطمئنان على حفظ النص وسلامته — إلى دراسة له بقصد تحليل ظواهر اللغة ، والاستشهاد به عليها .

وثانيا • لأن الروايات التاريخية تؤكد أنه خلف ما يسمى بمختصر أبي الأسود أو تعليقته [1] .

وفى تصورنا أن هذا المختصر كان نتيجة أمرين متلازمين :

أول هذين الأمرين هو نقط أبي الأسود للمصحف ، فقد لفت نظره دون شك هذا الاختلاف في الحركات في أواخر الكلمات ، وليس من المستبعد أن يحاول أبو الأسود إيجاد تصنيف من نوع ما لهذه الحركات المختلفه ، بل لقد

---

(١) انظر : الفهرست ٦١ ، أخبار النحويين البصريين ١٤ ، انباه الرواة ١/٦١ ، نزهة الالباء ١١ ؛ الشعر والشعراء ٢٨٠ ، طبقات النحاة واللغويين لابن قاضي شهبة (مصور) ٣/٢٨٤ ، سمط اللآلى ٦٤٣ .

صنفها بالفعل إلى مضمومات ومفتوحات ومكسورات ، منونة وغير منونة ، [١]
وينبغي في هذا المجال أن نفرق بين الظاهرة وبين الاصطلاحات التي تستخدم للدلالة عليها ؛ إذ قد تتعدد الاصطلاحات للدلالة على ظاهرة واحدة . وأبو الأسود لم يستخدم المصطلحات النحوية التي وضعت — دون شك — بعد عهده ، وهي مصطلحات الرفع والنصب والجر والجزم . ولكنه قد استطاع أن يدرك — بذكاء وفطنة — الظواهر اللغوية التي تشير إليها هذه المصطلحات وهي هذه الحركات المعينة التي تختلف باختلاف مواقع الكلمة في التركيب .

ومعنى هذا أن هذا المختصر إنما يتضمن (كلاما عاما) في ظواهر اللغة التي لحظها أبو الأسود ، بعد أن قام بضبط المصحف ، هو — إذن — أشبه بتعليقات عامة على ما قام به من عمل ، ونص ابن الأنباري صريح في أن هذا المختصر لم يضعه أبو الأسود إلا بعد أن ضبط المصحف [٢]

وثاني الأمرين اللذين نتجت عنهما هذه الوثيقة هو الاحتكاك مع تلاميذ أبي الأسود ، فمن المعقول أن يكون أبو الاسود قد ألقى على تلاميذه ما أدركه من خلال تجربته في ضبط المصحف ، وليس معقولا أن يشرح أبو الاسود ما قام به من عمل ، لأن ضبط المصحف عملية آلية لا تتطلب شرحا ، وإنما يتصور أن يلقى أبو الاسود بعض ملحوظات عما صادفه في هذا العمل ، ويتصور أيضا أن تكون هذه الملحوظات محور مناقشات بينه وبين تلاميذه ، وأن ينتج ذلك بالضرورة بعض الآراء التي تتصل بظواهر اللغة ، في محاولة لتلمس قواعدها العامة ، لا أن تتصل هذه الآراء بظواهر الكتابة والنقط .

---

(١) انظر : نزهة الألباء ١١
(٢) أنظر : نزهة الألباء ١١

وليست هذه النتائج مرتكزة على فرض مطلق ، بل هى تعتمد — بصورة أساسية — على النصوص التى وردت عن هذه الوثيقة [١] ، مع تفسير ما بينها من خلاف ، فى ضوء الظروف الموضوعية لنشأة علم يتصل بظواهر اللغة التركيبية .

وإذن فهذه الوثيقة التى تردد بعض المؤرخين فى تسميتها كتابا أو مختصرا أو تعليقة ، انما تتناول ما لحظه أبو الأسود من ظواهر لغوية استلفتت نظره فى أثناء قيامه بضبط المصحف ، وأبرز هذه الظواهر تلك الظاهرة التى كان الاضطراب فيها السبب الأساسى فى ضبط المصحف جملة ، ونعنى بها ظاهرة تغير الحركات فى أواخر الكلمات ، واتصال هذا التغير — إلى حد ما — بالمعنى ، وهو ما اصطلح عليه فيما بعد بظاهرة الإعراب .

ودليلنا على هذا أمران :

أولهما : ما ثبت من النصوص المروية من أن كتابة هذا المختصر أو الكتاب إنما كان بعد ضبط المصحف [٢] ، وإذن فهو نتيجة من نتائج هذا الضبط .

ثانيهما : ما ذكره ابن النديم — وهو ممن يعتد بهم إلى حد كبير ، لما يتميز به من تحرى الدقة والضبط وأصالة فى تحقيق النصوص — وقد قرر ابن النديم أنه رأى بعينه هذه التعليقة « وهى أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الاسود رحمه الله بخط يحيى بن يعمر »[٣] ويحيى بن يعمر واحد من تلاميذ أبى الاسود الذين أخذو منه أفكاره الرائدة ، ثم زادوا عليها — على ما سنذكر بعد قليل — ومما يؤكد صحة هذا النص

---

(١) انظر: أخبار النحويين البصريين ١٤ ، إنباه الرواة ١/١٦، الشعر والشعراء ٢٨٠ ، نزهة الألبا ١١ ، طبقات النحاة واللغويين (مصور) لوحة ٢/٢٨٤

(٢) ابن الأنبارى : نزهة ١١

(٣) الفهرس ٦١

أن ابن النديم يصرح بأن هذه الأوراق الأربعة « كلام فى الفاعل والمفعول » وذلك يعنى أن ما تتضمنه هذه الأوراق مجرد تعليقات عامة (١) حول الفاعل والمفعول ، بمعناها اللغوى أغلب الظن ، والمتصور أن هذه الإشارات إلى الفاعل والمفعول اللغويين واتصال حركاتهما بالمعنى هى التى أنهجت السبيل أمام جيل تال لوضع الاصطلاحات ، وتحديد الأقسام والأحكام. وإذن فانه ليس بصحيح ما زعمه الرافعى (٢) من أن هذه التعليقة تمثل بداية التدوين فى الأدب ، لا فى النحو ، فذلك مالا دليل عليه ، لا من النصوص المروية ، ولا من الظروف ذاتها .

ونص ابن النديم السابق يلقى ضوءا قويا على صورة النحو الأولى : على الظواهر التى عالجها ، والقضايا التى أثيرت فيه ، وما عسى أن يكون قد وضع لها من قواعد .

ذلك أن كثيرا من المؤرخين قد نسبوا إلى عصر أبى الأسود كثيرا من التعريفات والتقسيمات والأبواب فى النحو ، سواء كان هو صاحبها ، أو أخذها من على بن أبى طالب ؛ فهو يقسم الكلام إلى أسماء وأفعال وحروف ، ويضع لكل منها تعريفا ، ويقسم الأسماء إلى ثلاثة : ظاهر ومضمر ومبهم ، ويضع لكل منها تعريفا ، ويضرب له أمثلة ، ويضع أبوابا فى النحو عديدة منها : باب الفاعل والمفعول ، والتعجب ، والمضاف ، وأدوات الرفع والنصب والجر والجزم ، والنعت والاستفهام ، (٣) بل فى كلام بعض المؤرخين ما يفهم منه أنه قد وضع أبواب النحو كله (٤) .

(١) انظر دراسات فى حضارة الإسلام ٢٩٩ — ٣٠٠ .
(٢) انظر : تاريخ آداب العرب ٢٩١ .
(٣) انظر : أخبار النحويين البصريين ١٤ ، مراتب النحويين ٦ الأغانى ١٢ / ٢٩٨ ، نزهة الألبا ٤ — ٥ ، وفيات الأعيان ٢ / ٢١٨ ، معجم الأدباء ١٤/٤٩ — ٥٠ ، أنباه الرواة ١/١٦ ، مرآة الجنان ١/٢٠٣ — ٢٠٤ .
(٤) انظر : ابن الأنبارى ، نزهة ٥ — ٦

ومعنى هذه النصوص الكثيرة أن النحو ، في نشأته الباكرة على يد أبي الأسود، قد بلغ حدا من التطور فاق كل تطور حققه من بعد طوال أكثر من قرن، وهذا يسلم بالضرورة إلى الاصطدام بظاهرتين متناقضتين: الأولى أن النحو قد نشأ متطورا حتى أنه ليناقش في مرحلة نشأته ظواهر بالغة الدقة، وقضايا غاية في التفصيل في حين أنه — وهذه هي الظاهرة الثانية — قد جمد بعد ذلك بحيث لم يستطع أن يضيف جديدا من أبواب النحو ، ولا أن يدرك مزيدا من ظواهر اللغة .

ونحن نرفض هذا كله .

أولا : لأنه ضد منطق التطور الطبيعي ، فليس معقولا أن ينبثق فجأة علم يتصل باللغة، متكامل المنهج محدد الظواهر والأبعاد ، دون سابق معاناة في تحديد ظواهره ، وبلورة أبعاد قضاياه ، وذلك لأن اللغة ظاهرة اجتماعية، وتحليل الظواهر الاجتماعية يتطلب مرحلة طويلة من المعاناة في تناول الظواهرة ، والتردد في تشكيلها طبقا لتعدد علاقاتها وتنوعها ، إذ « من البديهات في تاريخ الاختراعات أن المنهج الجديد يندر أن ينشأ فجأة من لاشيء ويسبق الاختراع الفني عادة بتطورات في النظرية العلمية [1] » .

وثانيا : لأن التناول التفصيلي للقضايا النحوية يتطلب الاتصاف بسمتين رئيسيتين :

أولاهما : القدرة على التجريد .

وثانيتهما : القدرة على التقعيد .

والقدرة على التجريد تستلزم التزام منهج فكري يعتمد على كلية النظرة ، حتى يستطيع أن يصدر أحكاما شاملة تتناول المادة بأسرها ، دون أن يضلله عن ذلك

---

(١) انظر . اللغة في المجتمع ٢٨٥ .

ذلك الركام الهائل من جزئيات المادة، وصورها المشتقة المبعثرة ، كما تستلزم فى الوقت نفسه إحاطة دقيقة بالجزئيات ، بحيث يرتكز تحليله لما بينها من علاقات على إدراك حقيق لها ، وهكذا تتسم النظرة الكلية بالشمول وتصدر — فى نفس الوقت — عن إدراك تفصيلى ، فهل كانت هذه القدرة متوفرة فى عصر أبى الأسود ؟

إن من الواضح أن المادة اللغوية التى كانت محور دراسة أبى الأسود محصورة فى النص القرآنى، والنص القرآنى — على أهميته الكبيرة — جزء من المادة اللغوية المستخدمة فى عصر أبى الأسود نفسه ، ثم إن دراسة أبى الأسود له لم تكن قائمة على أساس تحليل ظواهره التركيبية ، لافتقاره بالضرورة إلى منهج محدد لهذا التحليل ، وإنما اعتمدت على مجموعة من الملاحظات العامة التى لا يمكن أن تسلم إلى نتائج علمية محددة .

والقدرة على التقعيد تتطلب مقدرة على صياغة الظواهر ، فى تشابكها وتعددها وتنوع علاقاتها ؛ فى قواعد تحيط بها وتدل عليها ، دون أن تتسم هذه القواعد بالاتساع فتضلل فى فهم الظاهرة بما تضيفه إليها من ظواهر أخرى ودون أن تتصف بالقصور عن الإحاطة بأبعاد الظاهرة والإلمام بكل تفاصيلها ، وهذا كله يستدعى نوعا من الإدراك لقوانين التفكير العلمى ، بحيث يعد صدوره دون إدراك لهذه القوانين نوعا من التناقض مع طبيعة التفكير العلمى ذاته، وإذا كان النحو العربى حتى عصوره المتأخرة قد أضاف فهم النصوص وتفسيرها إلى النصوص ذاتها ؛ فاعتبر ما يقدم من هذا الفهم بما يقدمه من كلمات الشرح ، وهذا التفسير بما يتضمنه من عبارات للتوضيح جزءاً من النص يجب أن يوضع فى الاعتبار حين التقعيد(١) ، مما أدى إلى اضطراب النحاة فى فهم الظواهر المختلفة للغة ، ومن ثم

(١) انظر . الحذف والتقدير فى النحو العربى ، المقدمة ص أ

أسلم إلى كثير من التناقض في التقعيد لها، ألا يصبح ـ بعد هذا كله ـ تصور القدرة على الصياغة التقعيدية للظواهر اللغوية في عصر أبي الأسود نوعا من السذاجة، لا تؤيدها قضايا العلم نفسه .

وثالثا : لأن الروايات التي يستند إليها جمهور المؤرخين في نسبة تلك التفاصيل إلى عصر أبي الأسود ـ وان كثرت ـ مشكوك فيها إلى حد كبير .

ذلك أنه ليس في نصوص القرن الثالث أية اشارة إلى هذه التفاصيل وأقدم اشارة اليها وردت في بعض روايات أبي الفرج المتوفى سنة ٣٥٦ هـ . وهو ـ فضلا عن تعصبه غير المحدود للشيعة ـ ذكر في روايته ما يؤيد الشك فيها، إذ عقب عليها بقوله :

« هذا حفظته ... وأنا حديث السن ، فكتبته من حفظي ، واللفظ يزيد وينقص[1] » .

ثم ان أهم النصوص التي نسبت إلى عصر أبي الأسود وضع التعريفات والتقسيمات والأبواب النحوية وردت في روايات ذكرها ابن الأنباري وياقوت والقفطي، وأولهم ينتمي إلى القرن السادس، والأخيران من مؤرخي القرن السابع، فهؤلاء العلماء الثلاثة متأخرون فترة طويلة عن المرحلة التي يؤرخون لها، وهو ما ينبغي أن يدفعنا إلى التحفظ في الأخذ بمروياتهم عنها. وبخاصة وأن بين روايات المؤرخ الواحد منهم من الاختلاف ما يؤيد هذا التحفظ ويدفع إليه، أما ابن الأنباري فقد سبق أن ذكرنا صورا من تناقضه، وأما ياقوت فانه يذكر حينا

(١) انظر، مقاتل الطالبين ٦٨، ٧٠

عن أبي الأسود أن « الأكثر على أنه أول من وضع العربية ونقط المصحف »[1] ونلحظ أنه استخدم هنا كلمة العربية ، وهو التعبير الذى استخدمه ابن سلام من قبل ليدل على ريادة أبي الأسود للدراسات النحوية دون أن ينسب إليه وضع أبواب محددة من أبواب النحو ، أو تناول قضية معينة من قضاياه[2] ثم يذكر ياقوت حينا آخر عن على بن أبي طالب أنه « كان عليه السلام أول من وضع النحو وسن العربية »[3] . وليس الاختلاف بين الروايتين راجعا إلى تردد الأولية بين على وأبي الأسود ، فتفسير ذلك هين ، وانما الخلاف الأساسي بينهما يعود الى استخدام ياقوت فى هذه الرواية الأخيرة لفظ (النحو) ليدل به على المعنى الاصطلاحى ، وتناقض روايات القفطى كثيرة أيضا ، حتى إننا لانكاد نجد روايتين بينهما تتفقان ، وأبرز ما بينها من تناقض يعود إلى الاضطراب فى استخدام لفظ العربية ولفظ النحو[4]

ورابعا : لأن النقد الداخلى لهذه الروايات يزيف نسبتها إلى عصر أبي الأسود وسنكتفى بأن نحلل هنا رواية واحدة تنسب إلى عصر أبي الأسود شيئاً من التقسيم والتعريف .

تذكر الرواية على لسان أبي الأسود أن عليا ألقى إليه صحيفة فيها[5] :
« بسم الله الرحمن الرحيم . الكلام كله اسم وفعل وحرف ، والاسم ما أنبأ عن

---

(١) معجم الأدباء ١٢/٣٤ .
(٢) طبقات فحول الشعراء (ط المعارف) ٨٢ .
(٣) معجم الأدباء ١٤/٤٢
(٤) انظر . أنباه الرواة ١/٤ — ٩ ، ١٥ — ١٦
(٥) انظر معجم الأدباء ١٤/٤٩ ، ٥٠ ، نزهة الألباء ٤ — ٦ وهذا النص هو ما سبق أن شكك فيه أبو الفرج فى الأغانى ١٢/٢٩٨ .

المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل » يقول أبو الأسود : « ثم قال لى : تتبعه وزد فيه ماوقع لك، واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر .

قال : فجمعت منه أشياء وعرضتها عليه ، وكان من ذلك حرف النصب، فكان منها إن وأن وليت ولعل وكأن ، ولم أذكر لكن ، فقال لى : لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها . فقال : بل هى منها فزدها » .

هذه الرواية تتضمن قضايا نحوية ثلاثة ، فهى تتناول أولا تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف ، ثم تعرف كل قسم منها ، ثم تتحدث ثانياً عن أقسام الأسماء ثم تثلث بذكر حروف نصب الأسماء، وبشيء من التأمل يتضح أن كل واحدة من هذه المسائل الثلاثة تتطلب قدرة على التجريد والتقعيد معا ، وهو ما لم يكن فى عصر على وأبى الأسود ، وقد استغرق الوصول إلى مثل هذه النتائج التفصيلية أجيالا كثيرة ، حتى عصر سيبويه ، بل إن سيبويه نفسه الذى يفصل بينه وبين على قرابة قرن ونصف قرن لم يستطع أن يصل إلى هذه الدقة من التفاصيل التى نسبت إلى على وعصره . ويكفى أن نقارن هنا بين تقسيم الكلام فى هذا النص وبين تقسيم سيبويه ؛ لنتأكد من أن هذا النص لا يمكن أن ينتسب إلا إلى عصر متأخر عن سيبويه .

يقول سيبويه فى (علم ما الكلم من العربية) « فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ؛ فالاسم رجل وفرس وحائط ، وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء ، وبنيت لما مضى ولما يكون ولم يقع وما هو كائن لم ينقطع ؛ فأما بناء ما مضى فذهب وسمع ومكث وحمد ، وأما بناء مالم يقع

فإنه قولك آمرا : اذهب واقتل واضرب ، ومخبرا : يقتل ويذهب ويضرب ، وكذلك بناء مالم ينقطع وهو كائن إذا أخبرت، فهذه الأمثلة التي أخذت من لفظ أحداث الأسماء ولها أبنية كثيرة . . . والأحداث نحو : الضرب والقتل والحمد ، وأما ماجاء لمعنى وليس باسم ولا فعل فنحو : ثم وسوف وواو القسم ولام الاضافة ونحو هذا [1] » .

وأول مايلاحظ في المقارنة أن في النص المنسوب إلى علي دقة ليست في نص سيبويه ، فنص علي يضع تعريفا لأقسام الكلام يشمل مفردات هذه الأقسام جميعا . أما التعريف الذي ذكره سيبويه ، والذي يعد في الواقع حصيلة الفكر النحوي حتى عصره ، فليس دقيقا تماماً ، لأن الاسم ليس « رجل وفرس وحائط » فحسب ، ولأن تعريفه للفعل إذا كان يصدق على ماذكر فإنه لا يتناول ليس وعسى ونعم وبئس ، لأنها لم تؤخذ من مصادر ، على حين يعدها سيبويه نفسه أفعالا [2] ، ويتناول — على العكس من ذلك — نحو : الذاهب والسامع ، والمقتول غداً المضروب الآن والمحمود الله على كل حال أليست هذه كلها « أمثلة : أخذت من لفظ أحداث الأسماء ، وبنيت لما مضى ولما يكون ولم يقع وماهو كائن لم ينقطع » . وكذلك الحروف فإن سيبويه لم يقدم لها تعريفا ، على حين قدمه النص المنسوب إلى عصر علي .

وأهم ما يلحظ في هذه المقارنة أن في التعريف الذي ذكره سيبويه اعتدادا بالمثال ، دون تقديم الصورة الذهنية الكلية التي تندرج تحتها الأمثلة، على حين أن التعريف الذي ينسب إلى علي تعريف منداق ، يتسم بصفتي الجمع والمنع معاً ، ويقدم في إطاره صورة ذهنية للمعرف ، ومن الواضح أن التعريف بالمثال يمثل مرحلة أولى نحو التعريف بالحد ، لأن التعريف بالمثال أو بالرسم لا يعدو ذكر

---

(١) كتاب سيبويه ٢/١

(٢) السابق

أمثلة من أنواع المعرف ، ثم ترك السامع أو القارىء يتلمس شبها بين هذه الأمثلة وبين غيرها من نوعها ليطلق عليها اصطلاحها ، والخطوة التالية هى تأمل هـذه الأمثلة لإدراك الصورة الذهنية المشتركة بينها ، وتلمس حقيقة العلاقات التى تجمع أبعادها ؛ وذلك يتطلب ـ كما ذكرنا من قبل ـ نظرة كلية معتمدة على منهج علمى محدد ، يستطيع أن يكشف ما بين أنواع المعروف من فوارق جوهرية أوشكلية حتى لايخلط بين المعرف وغيره ، وحتى يقدم التعريف صورة دقيقة لأجزائه وإذا كان ذلك لم يحدث فى عصر سيبويه ؛ ألا يكون من السذاجة تصور شىء من ذلك لم قبله بقرن ونصف قرن ؟ ! .

وثمة شىء أخير يلفت النظر فيما ورد من تعريف منسوب إلى عصر على ، فإن التعريفات التى نسبت إليه للاسم والفعل والحرف تتشابه والتقسيم الافلاطونى للموجودات ثم للألفاظ ، حتى أنها لتتطابق معه ؛ فقد قسم أفلاطون الموجودات إلى ذوات وأحداث وعلاقات ، ورأى أن كلا من الذات والحدث موجود وجودا واقعيا ، أما العلاقة فمجرد اعتبار ذهنى ،ثم قسم الألفاظ فى اللغة الاغريقيـة على أساس دلالتها على هذه الموجودات أقساما ثلاثة : أسماء وهى ماتدل على الذوات وأفعال وهى ماتدل على الأحداث وعلاقات وهى ما تدل على العلاقة بين الذوات والأحداث ، والصلة واضحة بين هذه الأقسام وتعريفاتها وبين ما ينسب إلى عصر على من تقسيم وتعريف ؛ ولعل فى وضوح هذه الصلة ما يكشف السر فى عدم وجود هذا النمط من التعريفات عند سيبويه ؛ إذ توفى قبل أن تذيع الأفكار اليونانية عن الوجود والقوانين الأرسطية للتفكير .

معنى هـذا أن رفضنا لمـا تقرره الروايات من نسبة كثير من التقسيمات والتعريفات والأبواب إلى عصر على ليس قائماً على أساس الإسراف فى ذكر جزئيات وتفاصيل فحسب ، وإنما لأن هذه الجزئيات والتفاصيل ما كانت لتصبح

فى مجـال الدرس الموضوعى بغير أسلوب منهجى ، فهو رفض لمـا تصـدر عنه الجزئيات وتمثله من منهج ما كان ليكتمل بغير مشاركة أجيال عديدة ، وتفاعل ثقافات واسعة وخبرات شتى .

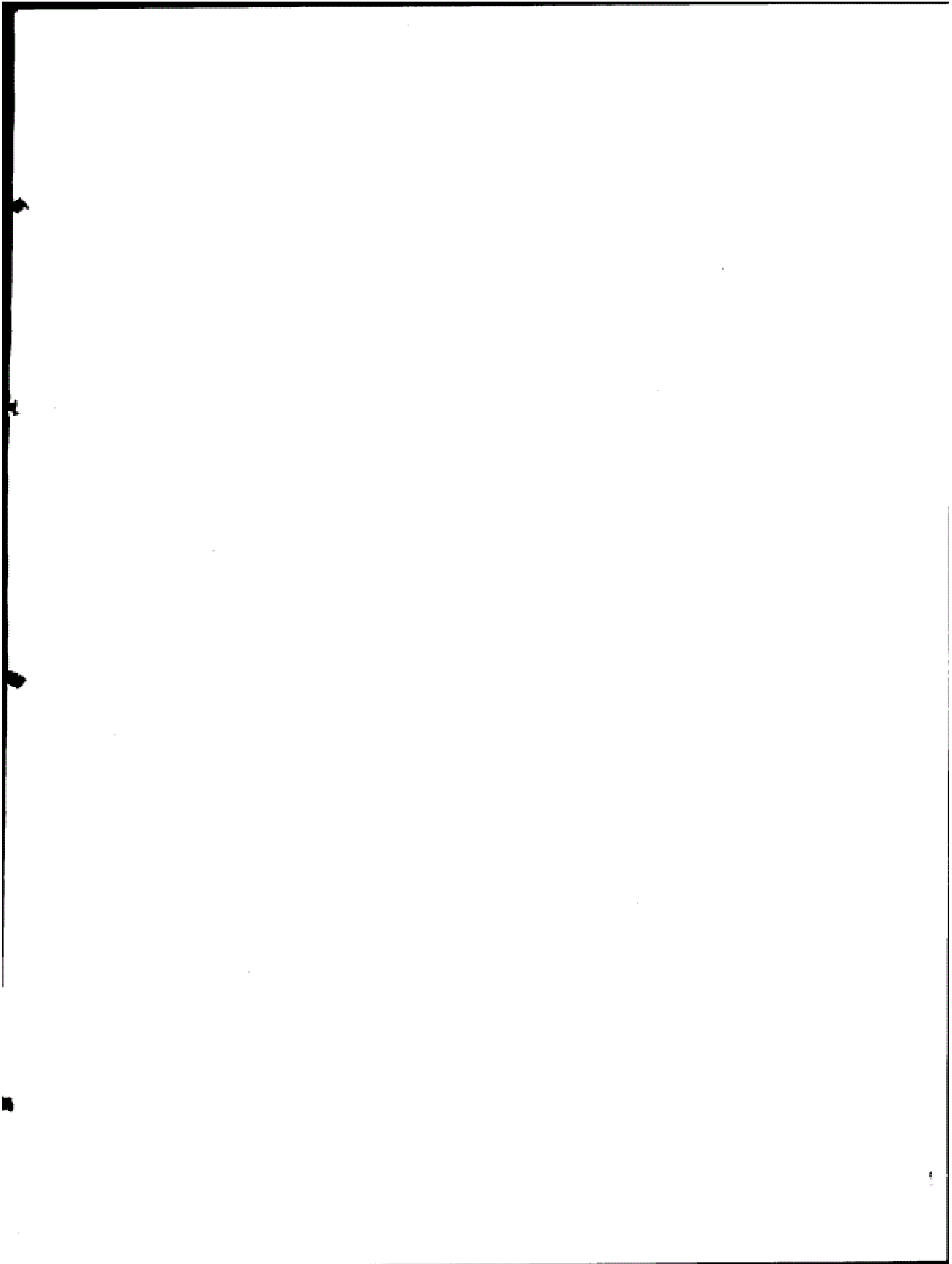
وإذا كنا نرفض أن تكون هذه الدراسات بكل تفاصيلها قد نشأت فى عهد على ، فليس معنى ذلك أننا نتناقض مع ماسبق أن اعترفنا به من ريادة أبى الأسود للدراسات النحوية ، إذ أن دوره يتخلص فى أنه أستطاع أن يدرك ظـاهرة من أبرز الظواهر فى اللغة العربية ، من خلال تصـديه للمشكلة الملحة من مشاكل التحدى اللغوى ، ونعنى بها مشكلة ضبط النص القرآنى، ثم ماستطاع أن يقدمه من تمليقات كانت ثمرة لقائه بتلاميذه ، ولعلها قد بدأت من مناقشة الصلة بين حركة الآخر وبين كون اللفظ فاعلا أومفعولا — بمعناها اللغوى — وربما يؤيد ذلك تلك الحوادث الكثيرة التى تنسب بدء التفكير فى النحو إلى اضطراب فى هذه الحركة على لسان ابنة أبى الأسود حينا [1] وأبناء زياد حينا آخر [2] . وسعد الفارس حينا ثالثا، [3] وغير هؤلاء فى أحيان أخرى [4] وربما يؤيده أيضا أن بعض من يتصف بالدقة كأبى الطيب اللغوى ـ ٣٥١هـ ـ حين ذكر الرواية التى تنسب إلى على دور اق النحو ذكر أن عليا قال لأبى الأسود : « اجعل للناس حروفا — وأشار إلى الرفع والنصب والجر » [5] . فهو لم ينسب إلى على غير هذه الكلمات الثلاث : (اجعل للناس حروفا) وأما ماذكره من إشارة على إلى الرفع والنصب والجـر فليس من كلام على وإنما هى تفسير لمـا أشار إليه على ، كما فهمه الراوى الذى عبر بهذه الأسماء الاصطلاحية عن مسمياتها ؛ وهى تغير الحركات فى أواخر الكلمات

(١) أخبار النحويين البصريين ١٤ ونزهة الالبا ١٢ — ١٣ والفاضل ٥

(٢) الإخبار المروية فى سبب وضع العربية ورقة ١٤٦ و مراتب النحويين ٨ .

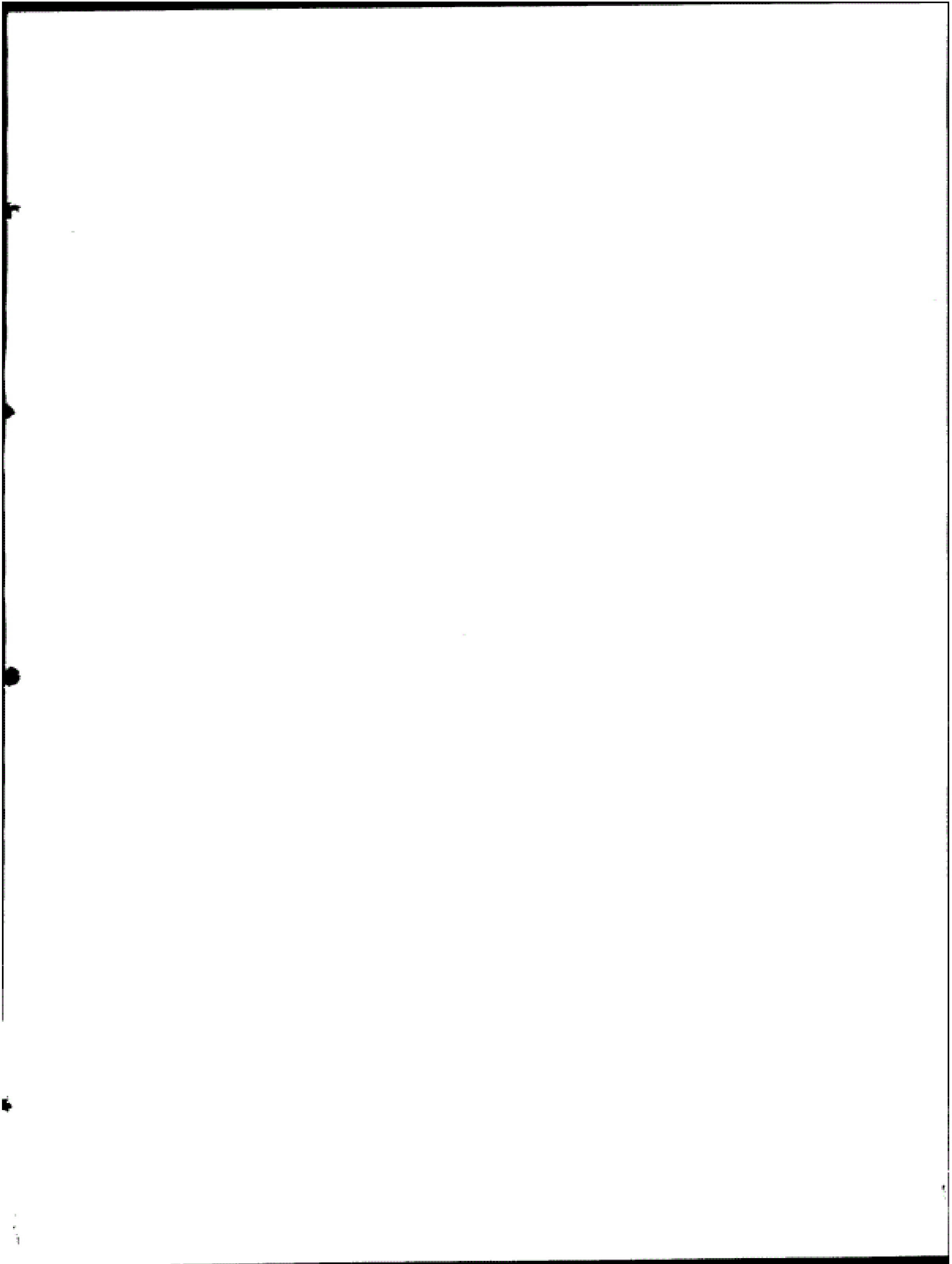
(٣) أخبار النحويين البصريين ١٣ (٤) أنباه الرواه ١/ ١٥

٥ مراتب اللغويين ٦ .



الباب الثاني

تطور التفكير النحوي



الفصل الأول

مرحلة الانتقال

أخذ عن أبي الأسود جماعة من التلاميذ، تنوعت اهتمامات أفرادها وتعددت اتجاهاتهم، ومن ثم يكاد كل منهم يمثل اتجاها يستقل به لا يشركه فيه من زملائه إلا القليل، ولذلك يتفاوتون في مدى أخذهم عن أبي الأسود، حتى إن بعض المؤرخين يضطربون في تقرير أخذهم عنه جملة؛ ويأخذ هذا الاضطراب صورا شتى، فهو تارة يبدو في تحديد هؤلاء التلاميذ، فبينما هم عند ابن قاضي شهبه ثلاثة: أبو حرب بن أبي الأسود، ويحيى بن يعمر، وعبد الله بن يزيد[1]، نجدهم أربعة أو أكثر عند السيرافي: يحيى بن يعمر، وعنبسة بن معدان — وهو عنبسة الفيل — وميمون الأقرن — ويقال ميمون بن الأقرن — فهؤلاء ثلاثة، يضاف إليهم نصر بن عاصم إذ يقال إنه أخذ عن أبي الأسود أيضا، وغيرهم[2]. ثم نجدهم خمسة عند ابن الأنباري؛ إذ يضيف إلى هؤلاء الأربعة الذين ذكرهم السيرافي خامسا هو: عبد الرحمن بن هرمز[3]. ويجملهم القفطي في الإنباه «حسب ما حصر الرواة».

---

(١) طبقات النحاة واللغويين لابن قاضي شهبة مصور ح ٢ لوحة ٢٨٤.

(٢) أخبار النحويين البصريين ١٧.

(٣) نزهة الألبا ١٤ — ١٥.

عنبسة بن معدان . . . وميمون المعروف بالأقرن ، وعطاء بن أبي الأسود ، وأبو نوفل بن أبي عقرب ، ويحيى بن يعمر ، وقتادة بن دعامة السدوسي ، وعبدالرحمن ابن هرمز ، ونصر بن عاصم »[١] . فهم عنده ثمانية ، كلهم « أخذوا عن أبي الأسود ، وتتفاوت مقاديرهم في العلم بهذا النوع من العربية »[٢] .

وتارة أخرى يأخذ الاختلاف في هؤلاء التلاميذ صورة مغايرة إذ لا يعود التضارب إلى أقوال المؤرخين وإنما ينبثق من مقارنة الأقوال التي يرويها المؤرخ الواحد ، ثم لا يقف عند تحديد هؤلاء التلاميذ بعامة وإنما يتجاوز ذلك فيتناول دور كل واحد منهم بوجه خاص ؛ ولعل ما ذكره السيرافي عن أبي عبيدة قال : « واختلف الناس إلى أبي الأسود يتعلمون منه العربية ، فكان أبرع أصحابه عنبسة بن معدان المهري ، واختلف الناس إلى عنبسة ، فكان البارع من أصحابه ميمون الأقرن فكان صاحب الناس »[٣] . ثم يروي السيرافي رواية ثانية ـ نقلا عن عبد الله بن محمد التوزي — وبعد أن يوثقه يقرر أنه سمع أباعبيدة يقول: « أول من وضع العربية أبو الأسود الديلي ، ثم ميمون الأقرن ثم عنبسة الفيل ، ثم عبد الله بن أبي اسحاق ، ففي هذه الحكاية ميمون قبل عنبسة ، وفي الحكاية التي قبلها عنبسة قبل ميمون »[٤] .

---

(١) انباه الرواة ٢/٣٨٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخبار النحويين البصريين ١٩ .

(٤) المصدر السابق .

وتعود هذه الاختلافات الكثيرة إلى سببين رئيسيين هما اللذان أوقعا المؤرخين في هذا التضارب .

وأول هذين السببين أن المؤرخين ، بل الرواة ، يربطون بين ما عرف عن هؤلاء العلماء من نشاط فكرى وبين لون النشاط الفكرى الذى اشتهر به أبو الأسود ، وكأن الأخذ عن واحد يتطلب تشابها يكاد يصل إلى درجة التطابق بين الأستاذ والتلاميذ ، ولذلك أغفل بعض المؤرخين ذكر قتادة بن دعامة السدوسى وعبد الرحمن بن هرمز ضمن تلاميذه ، كما أغفل كثير منهم ذكر أبى نوفل بن أبى عقرب وأبى حرب بن أبى الأسود بينهم[١] . لأن قتادة المتوفى سنة ١١٧[٢] كان راوية ، عالما بأنساب العرب وأيامها[٣] . كما كان ذا علم بالقرآن والحديث والفقه[٤] ، حتى ليقرر بعض المؤرخين أنه «لم يأتنا عن أحد من رواة الفقه من علم العرب أصح من شئ أتانا عن قتادة»[٥] وهو ما يشركه فيه إلى حد كبير ابن أبى عقرب فيما يروى شعبة[٦] . وأما ابن هرمز فلأنه كان ذا علم بالانساب كبير[٧] ،

---

(١) انظر : مراتب النحويين ١١ ، أخبار النحويين البصريين ١٧

(٢) المعارف ١٥٩ ، والنجوم الزاهرة ١/٢٧٦ ، الكامل ٤/٢٢٤ ، البداية والنهاية ٩/٣١٤ ، مرآة الجنان ١/٢٥١ ، أنباه الرواة ٣/٣٥ .

(٣) انباه الرواة ٣/٣٥ .

(٤) معجم الأدباء ١٧/٩ نكت الهميان ١٣٠ ، ٢٣١ .

(٥) انظر : شذرات الذهب ١/١٥٣ — ١٥٤ .

(٦) طبقات النحاة واللغويين (مصور) لوحة ٢/٢٨٣

(٧) انظر : نزهة الألبا ١٨

وهذا التنوع في الإلمام بعلوم شتى ، غير العربية ، هو الذي غلب دون شك على علمهم بالعربية ، فطغت هذه الصفات على العربية ، ومن ثم جعلت المؤرخين يغفلون أخذ هؤلاء التلاميذ عن أبي الأسود ، نسيانا له ، أو تهاونا بأمره ، وأما أبو حرب ابن أبي الأسود فقد شغل بشيء غير النشاط الذهني ، إذ ولاه الحجاج (جوخا) ومن ثم شغلته الإدارة والسياسة والإسهام في النشاط الفكري ، على الرغم من أنه ممن تتلمذ — في بعض الجوانب العلمية — على أبيه[1] .

وأما السبب الثاني — ويتصل أوثق الاتصال بالسبب الأول — فهو أن هؤلاء التلاميذ الذين أخذوا عن أبي الأسود ما عرف عنه من نشاط فكري في مجالين متصلين وهما : القرآن واللغة ، لم يضيفوا جميعا جديدا إلى ما أخذوه بل انشغل بعضهم بالإدارة كما انشغل بعض آخر بعلوم غير (العربية) ، وأما البعض الثالث فهو الذي استطاع أن يتابع ما بدأه أبو الأسود ، وأن يضيف إليه وينميه ، ولذلك كان الاختلاف حول تلمذة الفريقين الأولين أكثر من الاختلاف حول تلمذة هذا الفريق الأخير ، ولذلك أيضا كان الخلاف في الفريقين الأولين حول أخذهما عن أبي الأسود أصلا ، وأما الفريق الثالث فليس ثمة خلاف حول الأخذ عن أبي الأسود وتلمذته له ، وإنما الخلاف فيه محصور في مدى هذا الأخذ وأبعاد هذه التلمذة .

ويتمثل هذا الفريق الأخير في خمسة من العلماء هم : نصر بن عاصم وعنبسة الفيل ، وميمون الأقرن ، ويحيى بن يعمر ، وعطاء بن أبي الأسود .

---

(١) انظر : انباه الرواة ١/ ٢١

ولعل نصراً أكثر هذا الجيل شبها بأبى الأسود ، فهو يهتم بالقرآن والعربية معا ، أما القرآن فهو يتمم ما بدأه أبو الأسود من ضبطه ، وذلك أن الناس ظلوا يقرءون فى « مصاحف عثمان .... نيفاً وأربعين سنة ، إلى أيام عبد الملك ابن مروان ، ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق ، ففزع الحجاج إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات ، فيقال أن نصر بن عاصم قام بذلك ، فوضع النقط أفرادا وأزواجا ، وخالف بين أماكنها بتوقيع بعضها فوق الحروف ، وبعضها تحت الحروف »[1] — وأما العربية فهو يأخذ تلك التعليقات العامة التى خلفها أبو الأسود ويتأملها ، ويزيد فيها « ويفتق فيها القياس »[2] ثم يحاول أن يسجل ما أضافه إلى ما خلفه أبو الأسود ، ولكنه يجد أن التسجيل لا يمكن أن يحيط بما فى كلام العرب من ظواهر ، فيتوقف[3] .

ولعل عطاء بن أبى الأسود ويحيى بن يعمر يمثلان رغبة هذا الجيل فى التقعيد لظواهر اللغة ، إذ قد اتفقا بعد موت أبى الأسود على بسط النحو ، وتعيين أبوابه ، وبعج مقاييسه[4] ، ولما استوفيا جزءا متوافرا من أبواب النحو نسب بعض الرواة إليهما أنهما أول من وضع هذا النوع[5] .

وأما ميمون الأقرن وعنبسة بن معدان المهرى — المشهور بعنبسة الفيل — فإنهما يمثلان الاتجاه إلى التطبيق أكثر من الاتجاه إلى التقعيد وكانت محاولة

---

(١) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١٣

(٢) إنباه الرواة ٣/٣٤٣

(٣) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ١٥

(٤) انباه الرواة ٢ / ٣٨٠

(٥) إنباه الرواة ٢/ ٣٨١

عنبسة تطبيق ما يعرف من قواعد على شعر الفرزدق ، بالإضافة إلى تفضيله جريرا عليه ، باعثا قويا فى هجاء الفرزدق له بقوله :(١)

لقد كان فى معدان والفيل زاجر   لعنبسة الراوى على القصائدا

ولعل هذا الاتجاه إلى تطبيق القواعد على نصوص الشعراء أهم ما أخذه عن عنبسة عبد الله بن أبى إسحاق(٢) .

وعلى الرغم من تنوع اهتمامات هؤلاء التلاميذ فإنهم جميعا يمثلون مرحلة غاية فى الأهمية فى التصدى لحل المشكلة اللغوية وما نتج عنها من تناول الظواهر اللغوية بالتقعيد ، فقد استطاع نصر بن عاصم — بالنصبة للقرآن — أن يستكمل ما بدأه أبو الأسود فى هـذا المجال من ضبط ، كما استطاعوا جميعا — فى مجال الدراسة المباشرة للظواهر اللغوية بغية استخلاص قواعدها — أن يصلوا إلى نتائج محددة ، وأن يضيفوا إليها إضافة هامة ، وهى استخدام المصطلحات بمعناها الفنى لا لدلالتها اللغوية ؛ وذلك يتضح من مناقشة جرت بين يحيى بن يعمر العدوانى والحجاج بن يوسف الثقفى ، فقد سأل الحجاج يحيى : أتجدنى ألحن ؟ فقال يحيى : الأمير أفصح من ذلك . فقال : عزمت عليك ، أتجدنى ألحن ؟ فقال يحيى : نعم ، فقال له : فى أى شىء ؟ فقال : فى كتاب الله تعالى . فقال : ذلك أشنع ، ففى أى شىء من كتاب الله تعالى ؟ قال : قرأت (قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها

---

(١) معجم الأدباء ١٦/١٣٣ — ١٣٤ ؛ الموشح ١٠٠ — ١٠١

(٢) انظر الموشح ٩٩

وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم) فرفعت أحب.
وهو منصوب »(١) .

وهكذا استخدم يحيى بن يعمر اصطلاحى : مرفوع ومنصوب، للدلالة على حركتي آخر كلمة (أحب)، على حين أن أبا الأسود لما أراد أن يعبر عن هاتين الحركتين قال: « إذا فتحت شفتى . . . وإذا ضممتهما » ، (٢) فلم يستطع إلا أن يصف حركة الشفتين دون أن يضع لهما اصطلاحا .

وهكذا ورث الجيل التالى الدراسات فى العربية أكثر تحديدا بما أضافه الجيل السابق من تلاميذ أبى الأسود ، ولقد كان هذا التحديد سبيلا إلى نمو الدراسات فى مجالات ثلاثة متصلة ؛ أولها محاولة تقعيد ظواهر اللغة ، وثانيها — وهو أهمها فى واقع الأمر — محاولة تلمس أصول تنبنى عليها هذه القواعد ، وثالثها المحاولة الجادة لتسجيل ما أدركوه من ظواهر العربية ، وما قرروه فى النحو وأصوله من بحوث .

وفى أول هذه المجالات — وهو مجال التقعيد — نجد تأثيرا مباشرا العالمين من أبرز علماء هذه المرحلة ، وهما: عبد الله بن أبى إسحاق وأبو عمرو بن العلاء ، ولعل أهم ما استطاع أبو عمرو أن يقدمه هو اهتمامه الكبير بالقراءات إذ كان هذا الاهتمام بالقراءات سببا رئيسيا من أسباب انفصال الدراسات النحوية عن الدراسات القرآنية ، على الرغم من تداخل مادتهما فى أحيان كثيرة ، إذ أن الدراسات القرآنية — كما رأينا حتى الآن — كانت جزءا لا يتجزأ من اهتمام علماء العربية ، وقد

---

(١) انظر نزهة الألباء ١٩ — ٢٠ ، طبقات فحول الشعراء السعادة (ط المعارف) ١٠
(٢) نزهة الألباء ١٩ — ٢٠

ساعد على وثوق الصلة بين هذين المجالين من الدراسات أن مادة العربية قد انحصرت — إلى حد كبير — في تصور أبي الأسود ثم جيل تلاه، في القرآن، حتى كان أبو عمرو ابن العلاء، فاهتم بالقرآن وقراءاته أكثر من اهتمامه باللغة وقواعدها، فكان ذلك فاصلا بين دراسات القرآن وبحوث اللغة، فالقارىء يهتم بتصحيح قراءته نقلا لا لغة، وهو يتوقف عند المنقول وإن أجازت القواعد غيره، ولذلك يصرح أبو عمرو بأنه «لولا أن ليس لي إلا أن أقرأ بما قرىء لقرأت كذا وكذا وكذا وكذا».(١)

أما النحاة فإنهم على العكس من ذلك يختارون من القراءات ما كان على قياس العربية (٢). ولذلك كان من الطبيعي عند أبي عمرو أن يهتم بلغات العرب وغريبها (٣)، وأن يعنى من الشعر بما ينتسب إلى العصر الجاهلي، باعتبار أن ذلك كله هو المفتاح لفهم نص القرآن، ومن ثم للتعليل للقراءة المروية، وهكذا وجدنا الأصمعي يصرح بقوله «جالست إلى أبي عمرو عشر حجج، فلم أسمعه يحتج ببيت إسلامي» (٤) وهذا الموقف يختلف اختلافا عميقا عن اتجاه النحويين، فاهتمامهم — ابتداء من عبد الله بن أبي إسحاق — منصب على اللغة، وجهودهم منصرفة إليها، لتفهم ظواهرها ووضع قواعدها، وهم في سبيل ذلك يهتمون بالقرآن من حيث كونه مادة لغوية، ولكنهم في تناولهم له يحكمون على قراءاته بقواعدهم، أو بما ثبت صحته عندهم من هذه القواعد، ومن ثم كان اهتمام ابن أبي اسحاق بما يطرد وينقاس سواء كان في نص قرآني أو في غيره، فهو ينصح تلميذه يونس بقوله:

---

(١) طبقات القراء ١ /

(٢) وفيات الاعيان ٣/١٥٤

(٣) طبقات فحول الشعراء (ط المعارف) ١٤.

(٤) وفيات الاعيان ٣/١٣٦.

« عليك بباب من النحو يطرد وينقاس » (١) ، وهكذا حدث انقلاب فى العلاقة بين دراسات القرآن وبحوث اللغة على يد هذا الجيل ، إذ لم يعد الهدف المباشر من هذين النوعين من الدراسات واحدا ، بل صارت اللغة — فى ذاتها — هدفا ، وأضحت دراسة تراكيبها بغية الوصول إلى قواعدها هدفا للنحاة ، كما أصبحت دراسة مفرداتها وأصواتها غاية غيرهم من اللغويين ، ثم كشفت دراسة التراكيب والمفردات والأصوات جميعاً عن مجال جديد نشط فيه من بعد البحث عن قيمه الجمالية ، وصار بدوره مجال علم من العلوم اللغوية التى تداخلت دراساتها البلاغية والنقدية معا .

معنى هذا كله أن البحث النحوى — ابتداء من هذا الجيل — سينشط دون أن تتداخل معه أو تعوقه ظواهر لا تتصل اتصالا مباشرا بما يهدف إليه البحث النحوى من غايات ، وهى دراسة التراكيب اللغوية ووضع القواعد الكلية لها ، ولذلك أمكن أن تنشأ ، فى هذه المرحلة ، المحاولة الأصلية العظيمة الأثر فى البحث النحوى ، ونعنى بها تلمس أصول النحو ، أى الأسس العامة التى تنبنى عليها قواعده .

وكان أكثر علماء هذا الجيل تأثيرا فى هذا المجال عبد الله بن أبى إسحاق ، إذ « كان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل » (٢) وينبغى أن نكون حذرين حين نقرأ مثل هذه الاصطلاحات ، لأنها لم تكن قد اتخذت مضمونها

---

(١) طبقات فحول الشعراء (ط المعارف) ١٥ ، إنباه الرواة ٢/١٠٨

(٢) طبقات ابن سلام (ط المعارف) ١٤ ، إنباه الرواة ٢/ ١٠٥

الفنى بعد ، وإنما كانت ذات دلالات أقرب إلى المحتوى اللغوى ، ولذلك حين نقرأ عن اهتمام عبد الله بن أبى إسحاق بالقياس والتعليل يجب أن نقف قليلا ريثما نحدد مضمون هذا القياس ومدلول هذا التعليل ، ولا ينبغى أن تكون هذه الوقفة أمام نصوص المؤرخين وروايات الرواة ، بل يجب أن تكون إزاء الأحداث التى تتناول بالتفصيل موقف ابن أبى إسحاق ومن ثم تحدد مدلول ماوراءها من اصطلاحات .

ذلك أن المؤرخين والرواة يقررون أن ابن أبى إسحاق « كان أشد تجريدا للقياس من أبى عمرو » [1] كما ذكر ابن سلام وابن الأنبارى ، وقد « فرع النحو وقاسه » كما ذكر أبو الطيب [2] . كما يؤكدون أيضاً اهتمامه بالتعليل ، ذكر ذلك ابن سلام وابن الأنبارى والأزهرى جميعا [3] . فاذا انتقلنا الى ماروى من أخبار وجدنا هذه الكلمات لاتدل على مااستخدمت من بعد فى الدلالة عليه ، فإن القياس مثلا لايدل على العملية الشكلية التى يتم فيها إلحاق نص بآخر لما بينهما من شبه ، وحسبنا أن نضرب هنا مثلا واحدا يكشف عن تصور ابن أبى إسحاق للقاعدة النحوية ، وللأساس الذى تقوم عليه .

قال الفرزدق فى قصيدة يمدح فيها يزيد بن عبد الملك [4] :

---

(١) طبقات ابن سلام ١٤ ، ونزهة الألبا ٢٣

(٢) مراتب النحويين ١٢

(٣) طبقات فحول الشعراء ١٤ ، نزهة الألبا ٢٣ ، تهذيب اللغة للأزهرى (بمكتبة المجمع اللغوى رقم ٦٢٦ لغة) .

(٤) انظر : الموشح ٩٩ ، وطبقات فحول الشعراء ١٦ ، والرواية المذكورة =

مستقبلين شمال الشام تضربنا ... بحاصب كنديف القطن منثور
على عمائمنا تلقى وأرحلنا ... على زواحف تزجى مخها رير

فاعترض عليه عبد الله بن أبي إسحاق قائلا: «أسأت؛ إنما هي رير، وكذلك قياس النحو في هذا الموضوع» [1] — فابن أبي إسحاق يستخدم هنا لفظ القياس، ولكنه لا يعني به إلحاق نص بنص آخر، وإنما يقصد به ضرورة الخضوع لما يطرد من قواعد النحو، وإذا فالمقيس عند ابن إسحاق هو ما ننشئه من نصوص لغوية؛ والمقيس عليه ليس كلام العرب، بل ما اطرد من هذا الكلام وانقاس حتى أصبح قاعدة. وفي هذا الموقف من أبي اسحاق ذكاء في تصور فرق بين كلام العرب وبين قواعد النحو، إذ في كلام العرب ألوان من الاختلاف والتباين، بل والتضارب، تؤكد انتسابه إلى أكثر من مستوى لغوي واحد؛ فهناك مستوى اللغة وهناك مستوى اللهجات، وهي — بدورها — ذات طرق مختلفات تحتم تعدد مستواها وتنوعه، ومن ثم فإن القياس على هذا الكلام وجمله أساسا عمل خاطىء، لأنه ليس قياسا على ما يطرد وينقاس، ولذلك وجب — عند ابن أبي إسحاق — القياس على ما يطرد وينقاس، وهو القاعدة النحوية، التي استخلصت من المستوى الموحد، الذي يضرب عن اللهجات صفحا [2].

= هي المشهورة، ولكن رواية ديوان الفرزدق للبيتين مختلفة، إذ تجعل عجز البيت الثاني هكذا: على زواحف نزجيها محاسير، وهذا العجز هو ما انتهى اليه تعديل البيت، بعد حملة ابن أبي إسحاق على الفرزدق.

وانظر أيضا ديوان الفرزدق ٢٦٢ - ٢٦٣، خزانة الأدب ١/٢١٥ - ١١٦ التنبيهات على أغلاط الرواة (مخطوط) ٣٢ - ٣٣.

(١) طبقات فحول الشعراء ١٦ (٢) طبقات فحول الشعراء ١٥

وهذا منهج سليم لو أن القواعد النحوية قد بنيت على أساس استقرائى يتم فيه تحليل مستوى واحد ، ولكن من العلماء المعاصرين لابن أبى إسحاق من خلط بين مستويات الكلام ، وأسلمه الخلط الى أن يبرر ماقى النصوص من أخطاء تركيبية قياسا على ظواهر لهجية ، وقد دفع هؤلاء العلماء إلى هذا الموقف حينا تلك العصبية الحادة المتطرفة بين العرب والموالى ، وحينا آخر مجاملة ذوى النفوذ . فإذا كان ابن أبى اسحاق ـ وهو مولى آل الحضرمى، [١] وهم حلفاء بنى عبد شمس بن عبد مناف ـ ينكر أخطاء الفرزدق والنابغة ،فمن النحاة الخالصى النسب إلى العرب من يعرف النحو ويستخدمه ليدافع عنهما ، ويجمل لما يقولانه وجها ، ويحكم لذلك بأنه « جائز حسن » [٢]

وقد فتح هذا الموقف الباب لوقوع الدراسات النحوية — فى هذه الفترة الباكرة — فى خطأين :

أولهما : الخلط بين مستويات الكلام .

وثانيهما : استخدام التأويل لتصحيح مايخالف قواعد النحو من نصوص .

وثمة مثلان يكشفان عن هذا كله ، ويدلان عليه .

أولهما : أن عبد الله بن أبى إسحاق حين خطأ الفرزدق فى قوله [٣] :

---

(١) الموشح ٩٩ طبقات القراء ١/٤١٠ ، طبقات فحول الشعراء ١٧ .

(٢) الموشح ٩٩

(٣) فى البيت رواية أخرى ـ هى المذكورة فى الديوان ـ وهى بتغيير الكلمة الأخيرة فيه من مجلف إلى مجرف ، كما حكى على بن حمزة البصرى اختلاف الرواة فى (مسحت) بين الرفع والنصب =

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع   من المال إلا مسحتا أو مجلف

وسأله منكرا : على أى شىء رفعت مجلفا ؟ وأجابه الفرزدق : على مايسوؤك وينوؤك ، علينا أن نقول ، وعليكم أن تتأولوا ، سارع أبو عمرو بن العلاء بنجدة الفرزدق ولم يرض بخذلانه أمام ابن أبى إسحاق ، ومن ثم لجأ إلى تأويل بيته بقوله . « هو جائز على المعنى ، على أنه لم يبق سواه »[2] . أى كأن الفرزدق يقول : « لم يدع عض الزمان إلا مسحتا ، أو مجلف بقى » كما فسره من بعد على بن حمزة البصرى [3] .

وثانيهما : أن بلال بن أبى بردة حين لاحى ابن أبى إسحاق فى إحدى الكلمات القرآنية ، وتراضيا بأن يحكما بينهما أبو عمرو بن العلاء ، أجاز أبو عمرو قول بلال ، بل فضله على قول ابن أبى إسحاق ، ثم علل موقفه بعد ذلك لعبد الله بن أبى إسحاق بقوله : « والله لو أخطأ الملوك لصوبنا أخطاءهم ، فكيف إذا أصابوا ، إن منازعة الملوك تضفنهم»[3] » .

وقد نمى عيسى بن عمر هذه الاتجاهات الناضجة عند عبد الله بن أبى إسحاق [4] ، ولكنه خلطها بكثير مما تأثر به من أبى عمرو بن العلاء [5] فهو يهتم بمراعاة القواعد

= وهذا البيت من قصيدة مطلعها : —

عرفت بأعشاش وما كدت تعرف   وأنكرت من حوراء ما كنت تعرف

وهى إحدى النقائض .

انظر : نقائض أبى عبيدة ٢٤١/٢ ، ديوان الفرزدق ٥٥١ ، ٥٥٦ التنبيهات على أغلاط الرواة ٣٠

(١) الموشح   (٢) التنبيهات على أغلاط الرواة ٣١

(٣) مجالس أبى مسلم ١٢٢ — ١٢٣

(٤) أخبار النحويين البصريين ٢٥ ، طبقات ابن سلام ١٤ ، معجم الأدباء ١٦٠/١٤٧

(٥) مراتب النحويين ٢١

المطردة، حتى أنه يختار في القراءة ما وافق قياس العربية[1] ، ولكنه في الوقت نفسه يهتم بالغريب ولهجات العرب حتى أنه ليحاول القياس عليها . فإذا وجد تضاربا بينها فزع إلى النصب، معتمداً على التأويل وهكذا كان يقرأ : (الزانية والزاني) و (السارق والسارقة) ، (هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) و (ياجبال أوبي معه والطير) كما كان ينشد :

ياعديا لقلبك المهتاج[2] .

وهكذا وقع عيسى بن عمر في الخطأين اللذين وقع فيهما من قبل أبو عمرو ابن العلاء ، وأولها الخلط بين مستويات اللغة وجعل « قياس النحو » إلى كلام العرب كله ، لا إلى مستوى واحد هو الذي يطرد وينقاس منه ، وثانيهما تأويل ما لا يتفق مع ما أمكن الوصول إليه من القواعد النحوية من نصوص لغوية ليتسق مع هذا القواعد .

ولكن عيسى بن عمر — على الرغم من هذا الخلط — يمثل مكاناً بارزاً في هذه المرحلة ، ويعود ذلك إلى تسجيله إلى ما وصل إليه البحث النحوي حتى عصره من نتائج ، في مجموعة من الكتب ، ذكر بعض المؤرخين نقلا عن سيبويه أنها بلغت نيفا وسبعين مصنفا[3] اشتهر من بينها كتابان أولها : كتاب الإكمال أو المكمل ، وثانيهما كتاب الجامع[4] ، وفيهما يقول الخليل بن أحمد[5] :

---

(١) وفيات الأعيان ١٥٤/٣

(٢) انظر : طبقات فحول الشعراء ١٨

(٣) انظر : وفيات الأعيان ١٥٥/٣

(٤) أخبار النحويين البصريين ٢٥ ، الفهرست ٦٢

(٥) وفيات الأعيان ٣/ ١٥٥ ، أنباه الرواة ٣٤٧/٢

ذهب النحو جميعاً كله غير ما ألف عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع وهما للناس شمس وقمر

ويحلل راوى ابن خلكان والقفطى — الذى لم يصرح أى منهما باسمه — هذين البيتين بقوله : « أشار بالإكمال إلى الغائب ، وبالجامع إلى الحاضر »[1] وهو يقرر ذلك ليستنتج أن الجامع كان موجوداً على عهد الخليل وسيبويه ، ليصح له ما قرره من أن سيبويه قد « أخذ هذا الكتاب وبسطه وحشى عليه من كلام الخليل وغيره ، ولما كمل بالبحث والتحشية نسب إليه ، وهو كتاب سيبويه المشهور »[2] . ولعل القفطى وابن خلكان قصدا بذلك أن يقللا من أهمية ماثبت منذ عصر مبكر من أن أحدا لم ير أيا من هذين الكتابين ، وعبارة السيرافى صريحة فى أن هذين الكتابين « ما وقعا إلينا ، ولارأيت أحدا يذكر أنه رآهما »[3]

ومن ثم قصد ذلك الراوى المجهول إلى تحليل هذين البيتين واستيحاء دلالتهما اللفظية فى محاولة لإثبات وجود ثانيهما ، ولعل مما يدعم هذا الاستنتاج أن الروايتين اللتين تحدث فيهما ابن خلكان والقفطى عن هذين الكتابين تبدآن بقولهما : ويقال أو : وقد قيل ، دون أن يذكر لأى من هاتين الروايتين مصدرا أو سندا[5] .

وقد أغرى هذا التحليل الذى يعتمد على استيحاء المعنى اللفظى لاسمى الكتابين بعض الباحثين بتقرير أحكام عن قيمة هذين الكتابين ، حتى إن بعض المؤرخين أضافوا إلى البيتين السابقين بيتا ثالثا ، ونسبوه أيضا إلى الخليل ، وهو[6] :

(١) وفيات الأعيان ٣/١٥٥ و إنباه الرواة ٢/٣٤٧
(٢) المصدران السابقان(٣) أخبار النحويين البصريين ٢٥
(٤) الفهرست ٦٣ .
(٥) وفيات الأعيان ٣/١٥٥ ، ٣٤٧ .
(٦) انظر : طبقات النحويين واللغويين ٣٧ .

وهما بابان صارا حكمة وأراحا من قياس ونظر

وأغلب الظن أن هذا البيت الثالث مصنوع : فهو — أولا — لا يذكر فى كثير من المصادر التى ذكرت البيتين السابقين ، ثم هو — ثانيا — يستخدم ألفاظا محددة ، أقرب إلى الاصطلاحات ، ثم هو — ثالثا — يجمل قيمة الكتابين محددة تحديدا واضحا ، فقد أراحا من النظر وما يتبعه من كد الذهن ، ووفرا على القارىء جهدا يبذله وطاقة ينفقها فى القياس على كلام العرب بما جمعاه بين دفتيهما من آراء . وهذا التحديد الدقيق يختلف عن ذلك الاحساس الذى صدر عنه تشبيه الخليل فى بيته للكتابين بأنهما شمس وقمر . إذ النفسية التى يصدر عنها هذا التشبيه لاتتفق مع العقلية التى يصدر عنها هذا البيت ؛ فتلك النفسية تصدر عن نظرة عاطفية تعتمد على إحساس جياش ، وتعبر فى إطار من التشبيه لترتكز على تأثير عاطفى مباشر ، أما هذا البيت فانه يعتمد على النظر العقلى ، الذى يقرب — أو يكاد — من موضوعية التناول والحكم ، وماتفرضه هذه الموضوعية من تجرد — إلى حد ما — من المؤثرات الخارجية ، ولذلك يبدو من قبيل الجمع بين المتناقضات أن تنسب هذه الأبيات الثلاثة إلى شخص واحد ، وأن تصدر عنه فى لحظة واحدة .

ومادامت هذه الكتب قد فقدت منذ أمد طويل ، فلا سبيل إلى معرفة أى من هذين الكتابين إلا من خلال ماقد يكون صدر عليهما من أحكام ، ولكن ماورد فى هذا المجال قليل يبلغ حد الندرة ؛ فأبو الطيب — وهو من أقدم المؤرخين وأقربهم إلى هذه الفترة — يذكر أن أحد هذين الكتابين كان مختصرا ، وأن الآخر كان مبسوطا[1] ، ولعله يعتمد بدوره على استيحائه اسمى الكتابين ، ولذلك

---

(١) مراتب النحويين ٢٣

فإن حكمه لا يضيف كثيرا ، بيد أنه ينقل عن المبرد نصا له أهميته ؛ إذ هو النص الوحيد الذى نقل عن شخص رأى كتابا لعيسى بن عمر ، فيقول : أخبرنا محمد بن يحيى قال ، أخبرنا محمد بن يزيد قال ، قرأت أوراقا من أحد كتابى عيسى بن عمر فكان كالإشارة إلى الأصول (١) .

فاذا أضفنا إلى هذا ماذكره على بن محمد بن سليمان عن أبيه أنه قال : « لعيسى بن عمر : أخبرنى عن هذا الذى وضعت ، يدخل فيه كلام العرب كله ؟ قال ؛ لا ، قلت : فمن تكلم بخلافك واحتذى ما كانت العرب تتكلم به ، أتراه مخطئا ؟ قال ، لا » (٢) . ومن هذين الخبرين نصل إلى نتيجة ظنية ، وهى أن واحدا من كتب عيسى بن عمر كان يسجل ماتوصل إليه البحث النحوى من أصول ، وهو ماتؤيده بعض روايات ابن خلكان (٣) . ولكن هذه الأصول — بحكم المرحلة ذاتها التى ألفت فيها — كانت مختلطة بكثير من الجزئيات والتفاصيل ، ثم مترددة بين القياس على كلام العرب ، والقياس على قواعد النحو التى تستخلص مما يطرد فى هذا الكلام وينقاس .

* * *

ثم خطا البحث النحوى خطوة جديدة على يد أبى معاوية شيبان ابن عبد الرحمن التميمى النحوى ١٦٤ هـ أو ١٧٠ هـ ، ومن تتلمذ عليه أو أخذ عمن تتلمذ عليه . ثم على يد الخليل بن أحمد ١٧٠ أو ١٧٥هـ ومعاصريه ، مثل يونس ابن حبيب ١٨٢ هـ أو ١٨٣ هـ ، وأبى الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد الأخفش الأكبر ، ومن أخذ عنهم من تلاميذهم .

أما شيبان فكان واحدا من علماء البصرة ، الذين يشتغلون بالقراءة والحديث

---

(١) مراتب النحويين ٢٣ .
(٢) أخبار النحويين البصريين ٢٦ ، طبقات النحويين واللغويين ٤١
(٣) وفيات الأعيان ٣/ ١٠٥

والنحو ، وكان ثقة فى كل شىء كما ذكر يحيى بن معين[١] ثم انتقل من البصرة إلى الكوفة ، ولكنه لم ينعزل عن البحث النحوى كما فعل يحيى بن يعمر من قبل ، حين نفى من البصرة إلى خراسان ، بل على العكس من ذلك فتح أمام تلاميذه الكوفيين هذا الميدان الجديد الذى لم يشاركوا فيه من قبل . ولعل الفرق بين ما حدث من ابن يعمر وما استطاع أن يفعله شيبان يعود إلى اختلاف فى البيئة التى انتقل إليها كل منهما ، ثم إلى اختلاف فى طبيعة تكوينهما ؛ أما اختلاف البيئة فلأن الكوفة مصر إسلامى عربى معا ، وهى بذلك نظيرة البصرة؛ إذ اهتمامات أهلها شبيهة تقريبا باهتمامات البصريين ، لأن التكوين الاجتماعى لهاتين المدينتين واحد[٢] ، واللغة السائدة فيهما هى العربية فى مستواها الفصيح فى مجالات العلم والسياسة ، وفى مستوياتها العامية فى ميادين الحياة اليومية ، أما خراسان فإقليم فارسى ، والأغلبية الكاثرة فيه من الشعب المفتوح ، أى من أصل فارسى ، وإذا كانت العربية لغة السياسة فليست بطبيعة الحال لغة الحياة اليومية ، ومن ثم فهى منعزلة فى إطار محدود تفرضه السلطة السياسية ، أما خارج نطاق هذه الدائرة المحدودة فقد ظلت الفارسية تفرض على الناس سلطانها .

وبين الرجلين أيضا كثير من الاختلاف ، فيحيى بن يعمر يعرف بأنه ممن يتسامحون فى كثير من الأمور ، حتى إن يزيد بن المهلب لا يرضاه ويعزله عن ولاية القضاء[٣] ، وهذا التسامح يشف عن لون من الضعف النفسى الذى لا يستطيع أن يصمد طويلا أمام التحديات ، فإن بدت منه فى لحظات صور من الشجاعة

---

(١) نزهة الألبا ٤٠ .
(٢) انظر : مدرسة الكوفة ٥ — ٩ ، ١٢ — ١٥ .
(٣) نزهة الألبا ١٩

فهى مجرد لمحات ، أما شيبان فعلى الرغم من ندرة مايعرف عنه فإنه من الذين أخلصوا فى جهادهم أنفسهم فى سبيل العلم؛ ندرك ذلك من موقف المتحفظين من العلماء منه ، وآرائهم فيه ، فالإمام أحمد بن حنبل يرضاه ، ويقول : « شيبان أرفع عندى. شيبان صاحب كتاب صحيح ، وقد روى شيبان عن الناس فحديثه صحيح »[1]. ويحيى بن معين يقول « ثقة فى كل شىء »[2] وابن عمار يقول عنه « بصرى ثقة »[3] والذهبى يقول « ثقة ، مشهور » ويقول « هو ثبت فى كل المشايخ »[4] وإذا كان هؤلاء العلماء قد ارتضوه ووثقوه ، على الرغم مما يلتزمون به من تحرز وتشدد ، فإن ذلك يؤكد إلى جوار قيمته العلمية قيمته الأخلاقية أيضا ، وارتفاع سلوكه عن الشبهات .

وقد أخذ عن شيبان فى الكوفة جماعة من التلاميذ ، أشهرهم معاذ بن مسلم الهراء ، الذى أخذ عنه ابن أخيه أبو جعفر محمد بن الحسن بن أبى سارة الرؤلى ، وأبو الحسن على بن حمزة الكسائى .

ودور معاذ الهراء فى النحو محور خلاف كبير ، فعلى حين يذكر بعض المؤرخين أنه « لا كتاب له يعرف »[5] يقرر إسحاق بن الجصاص أنه كان « يصنف كتب النحو فى أيام بنى أميه[6] ، وهى دعوى عريضة لا شاهد عليها ،

---

(١) انظر : شذرات الذهب ١/٢٥٩ .

(٢) السابق ، وانظر : تهذيب التهذيب ٤/٣٧٣ — ٣٧٤

(٣) المصدران السابقان

(٤) ميزان الاعتدال ٢/٢٨٥ .

(٥) نزهة الألباء ٦٥ ، الفهرست ٩٧

(٦) أنباه الرواة ١/٢٩٠ .

وابن الجصاص نفسه لم يرو شيئا عن كتبه، بل إنه لم يذكر حتى أسماءها، مما يضعف روايته ويشكك فى صحتها ؛ وبخاصة وأن الكثير من محققى المؤرخين يقررون أن أول من وضع من الكوفيين كتابا فى النحو هو تلميذ معاذ : أبو جعفر محمد بن الحسن أبى سارة الرؤلى الذى ألف « كتاب الفيصل — رواه جماعة — وكتاب التصغير ، وكتاب معانى القرآن — الذى رآه ابن النديم — وكتاب الوقف والابتداء الكبير ، وكتاب الوقف والابتداء الصغير »[١] .

وإذا كان معاذ ممن لم يسهموا فى التأليف النحوى ، فقد أسهم فى جوانب أخرى من البحث النحوى ، إذ كان يفضل نشر معلوماته عن طريقين آخرين ، أولهما تلقين تلاميذه، وثانيهما المشاركة فى مناظرات علمية تكون المناقشة فيها نابعة عن موردين يتضافران على إظهار مدى التألق الفكرى ، أمام جمهور يشهد ويتابع ، وهذان الموردان هما حفظ المادة اللغوية ، ثم القدرة العقلية على استخدام هذه المادة وتفريعها ، هذه القدرة التى حفزته إلى درس الصيغ والمفردات ، ووضع بذلك فى الصف الأول من علماء الصرف فى نشأته الباكرة .

ومما ينقل عن معاذ مناظرة جرت بينه وبين بعض النحويين ، حضرها أبو مسلم[٢] — وكان ممن يهتم بالنحو أيضا — فسمع معاذاً يسأل الرجل : كيف تقول من (تؤزهم أزا) يافاعل افعل؟ وصلها بيافاعل أفعل من (إذا الموءودة سئلت).

---

(١) الفهرست ٩٦ ، ونقله ياقوت فى المعجم ١٨ / ١٢٥ .

(٢) انظر : إنباه الرواة ٣ / ٢٩٢ — ٢٩٣ ، طبقات النحويين واللغويين ١٣٦ — ١٣٧ .

فأجاب الرجل معاذا(١) ، فسمع أبو مسلم كلاما لم يعرفه ، فقام عنهم ، وأنشأ أبياتا يهجو فيها هذا الاتجاه الجديد فى دراسات اللغة بقوله :

قد كان أخذهم فى النحو يعجبنى ... حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاما ليس يعجبنى ... كأنه زجل الغربان والبوم
تركت نحوهم والله يعصمنى ... من التقحم فى تلك الجراثيم

فأجابه معاذ بقوله :

عالجتها أمرد حتى إذا ... شبت ولم تعرف أبا جادها
سميت من يعرفها جاهلا ... يصدرها من بعد إيرادها
سهل منها كل مستصعب ... طود عليه فوق أطوادها

وهذه المناظرة توضح — أولا — اهتمام معاذ بدراسة الصيغ ، أو بتعبير آخر تكشف عن ولع معاذ بالتصريف ، بحيث يمكن أن يعد رائد الدراسات الصرفية ، وقد أثر هذا الولع على الاهتمام بقضايا النحو ، ولهذا لم يعد من أعلام النحويين ، وفى هذا ما يؤكد موقفنا الذى رفضنا فيه ما قرره ابن الجصاص من تأليفه فى النحو .

وهذه المناظرة تكشف — ثانيا — عن استقرار فى القواعد الصرفية ، بحيث أمكن القياس عليها والتفريع منها فى مثل تلك الكلمات المعقدة ، فإن استخلاص المطلوب فى هذه الكلمات يتطلب معرفة بالحروف الأصلية والحروف الزائدة ،

---

(١) المصدران السابقان وانظر : مجالس أبى مسلم — مخطوط — ورقه ١٠٦ ، مجالس العلماء للزجاجى ١٩٠ — ١٩١ .

كما يستلزم معرفة بالميزان ، ويستدعى إحاطة بقضايا القلب والإبدال والإعلال والهمز . . . إلى آخر هذه الظواهر الصرفية ، وهذا كله لا ينشأ فجأة ، فلابد أن يكون معاذ قد تخصص فى عمره الطويل — الذى بلغ المائة — فى دراسة المفردات وتقلباتها ، حتى استقرت عنده بعض قوانينها ، ثم لابد أن ينتقل هذا الاهتمام إلى المحيطين به والمشاركين له فى النشاط العلمى ، ومن ثم فإن من المعقول أن يكون الكوفيون قد أولوا هذا النوع من الدراسات اللغوية اهتماما خاصا ، ليكون بمثابة تعويض لما لحقهم من قصور فى النحو بالنسبة إلى نظرائهم البصريين.

وثمة أمر ثالث تكشف عنه تلك المناظرة وهو أن الاعتماد على الفرض فى المجال اللغوى — وهو هنا افتراض صيغ معينة من مواد لم ترد منها تلك الصيغ — قد قوبل بكثير من الإنكار من علماء يشاركون فى البحث النحوى أيضا ، وكأن هذا الفريق من العلماء يرى الاقتصار على تناول ما هو موجود بالفعل فى اللغة ، دون افتراض ما لا وجود له ، ولكن هذا الموقف لم يعنم المخالفين لهم لم من تحويل القضية بأسرها ، فهم يتهمون أصحاب هذه الدعوى بالقصور عن استيعاب قواعدهم وجهلهم بها.

وهكذا تحدد هذه المناظرة ملامح تحول فى الدراسات اللغوية بوجه عام.[1]

---

(١) انظر طبقات النحويين واللغويين ١٢٦، انباه الرواة ٣/٢٢٩، مجالس أبى مسلم — مخطوط — ورقة ١٠٦، مجالس العلماء ١٩١ .

الفصل الثاني

استقرار الأفكار

تسلم الخليل بن أحمد وجيله النحو وهو يتسم بسمات ثلاثة :

أولا : الخلط بين المستويات اللغوية ، وقياس القواعد إلى مايسمع من كلام العرب لا إلى مايطرد وينقاس من هذا الكلام .

ثانيا : استخدام التأويل لتصحيح مايخالف قياس النحو من نصوص ،ويفتح التأويل السبيل أمام النحاة لكي يجعلوا قواعدهم من المرونة بحيث تسوغ معها الأخطاء التركيبية فيما يسمعون من نصوص ، حرصا على إرضاء الخلفاء والأمراء وذوى السلطة حينا ، أو ولاء لشعور قوى حينا آخر .

ثالثا : افتراض واقع لغوى لايعتد عن واقع اللغة ذاتها ، وإنما يعتد عن هذه القواعد المرنة المستنبطة من المستويات اللغوية المختلطة ، وقد ابتدأ هذا الافتراض فى مجال المفردات والصيغ بما يمكن أن يسمى اشتقاقا ، ثم تجاوز هذا المجال إلى ميدان أوسع وأرحب وأعمق خطرا على القواعد النحوية ، وهو التراكيب ذاتها .

ترى .. ماذا استطاع الخليل بن أحمد أن يقدم بعد ذلك للنحو العربى ؟

ربما كان دور الخليل فى النحو أحد الموضوعات القليلة التى اتفق عليها الدارسون ، من عرب ومستشرقين ، حتى إن ابن العماد الحنبلى قد ذكر « أن

الإجماع منعقد على أنه لم يكن أحد أعلم بالنحو من الخليل »[١] ويجزم بروكلمان بأن الخليل هو « المؤسس الحقيق لعلم النحو العربى ، الذى وضعه سيبويه فى كتابه بعد أن تلقاه عنه ، وتعلمه عليه ، كما أنه يصرح بالرواية عنه فى أكثر أبواب الكتاب »[٢].

والواقع أن هذا النمط من الأحكام العامة المطلقة غير مقبول ، لأنه لا يرتكز على أسس موضوعية ولا يعتمد على تحليل علمى ، أما المؤرخون المسلمون فلأنهم معجبون بالرجل إلى أبعد غايات الإعجاب ، يبهرهم ذكاؤه ويهزهم سلوكه ، ولكن الإعجاب موقف عاطفى لا يصمد مع التحليل ، ومن ثم فإنه لا يجب أن يأسرنا هذا الإعجاب فننزلق إلى إصدار مثل هذه الأحكام . وأما المستشرقون فلأنهم ولئن تخلصوا من الإعجاب العاطفى ، لم يبرءوا من القصور العلمى ، إذ يبنون كلامهم على تحليل كتاب سيبويه ، وما ينتجه هذا التحليل من رواية سيبويه عن الخليل فى أكثر أبواب الكتاب ، وهذا صحيح ، فإن سيبويه قد روى عن الخليل فى كتابه كثيرا ، حتى إن عدة المرات التى نقل فيها عنه بلغت اثنتين وعشرين وخمسمائة ،[٣] وهو عدد ضخم بالقياس إلى جملة الروايات التى نسبها فى كتابه إلى أصحابها سوى الخليل ، والتى بلغت ستا وثلاثين وثلاثمائة ، موزعة على الترتيب بين يونس بن حبيب ، وأبى الخطاب الأخفش ، وأبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، وأبى زيد الأنصارى ، وهارون بن موسى ، وعبد الله بن أبى إسحاق ، والكوفيين وهذيل[٤] .

---

(١) شذرات الذهب ١/٣٧٧

(٢) تاريخ الأدب العربى ٢/١٣١

(٣) سيبويه إمام النحاة ٩٨

(٤) المصدر السابق

ولكن هذه الكثرة فى نقل سيبويه عن الخليل لا تسلم بالضرورة إلى الزعم بأن الخليل هو المؤسس الحقيقى لعلم النحو العربى ، لأن كتاب سيبويه ليس أول كتاب ألف فى النحو العربى ، وإن كان أقدم مانقل إلينـا من الكتب ، وإذا فرواية سيبويه عن الخليل لاتعنى غير تأثره البالغ به ، ولكن لا ينبغى أن ندع الحكم على سيبويه يجرنا إلى إصدار حكم عام على الخليل ، لأن إصدار مثل هذا الحكم يتطلب دراسة شاملة لآثار الخليل النحوية فيما خلف من مؤلفات ، وفيما نسب اليه فى مؤلفات تلاميذه أيضا .

كتب الخليل :

تنقسم الكتب التى ينسب إلى الخليل تأليفها إلى أربعـة أقسام ، توضح اهتمامات الخليل كما تصورها المؤرخون :

القسم الأول منها كتب ألفها فى الموسيقى ؛ وهى كتاب النغم ، وكتاب الإيقاع ، وقد ذكرها ابن النديم[١] ، وعنه أخذ من ترجموا له ، وهذان الكتابان فى الموسيقى العامة ، كما يشهد لذلك ما ذكره الزبيدى من أنه « لما صنع إسحاق ابن إبراهيم كتابه فى النغم واللحون عرضه على إبراهيم بن المهـدى فقال : أحسنت يا أبا محمد وكثيرا ما تحسن ، فقال إسحاق : بل أحسن الخليل لأنه جعل السبيل إلى الإحسان »[٢].

---

(١) الفهرست ٦٥ ، وذكر كتاب النغم ابن خلكان فى وفيات الأعيان ٢/١٧ ، القفطى فى إنباه الرواة ١/٣٤٦ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٤٦

والقسم الثانى — ويتصل بالقسم الأول فى دلالته على ثقافة الخليل الموسيقية ، واستفادته منها فى تأسيس قواعد الشعر العربى — وهو كتابه فى العروض .

والقسم الثالث كتبه اللغوية ، وعلى رأسها كتاب (العين) الذى تضطرب الروايات فى وضعه من قديم ، ولعل أصح ما يقال عنه أن الخليل قد وضع خطته . ووضع نموذجا لتطبيق هذه الخطة ، ثم توفى الخليل فأكمله بعض تلاميذه [١] . وإذا صح هذا الذى نرجحه فإن نسبة كتاب (فائت العين) إلى الخليل — كما فعل ابن النديم ، وتابعه فيه السيوطى — تكون خاطئة [٢] .

ثم كتاب الشواهد [٣] ، ولعله كتاب معانى الحروف الذى ذكره بروكلمان [٤] ثم كتاب النقط والشكل [٥] .

والقسم الرابع كتبه النحوية . وقد ذكر له ابن خلكان كتابا فى العوامل [٦] ، ونسب له ياقوت كتابا سماه : الجمل [٧] .

---

(١) انظر : مراتب النحويين ٣٠ — ٣١ ، وفيات الأعيان ٢/١٧ ، بغية الوعاة ٢٤٤ ، انباه الرواة ١/٣٤٣ ، المزهر ١/٧٦ ، البداية والنهاية ١٠/١٦١ .

(٢) الفهرست ٦٥ ، بغية الوعاة ٢٤٥

(٣) الفهرست ٦٥ ، وفيات الأعيان ٢/١٧ ، انباه الرواة ١/٣٤٦ بغية الوعاة ٢٤٥

(٤) تاريخ الأدب العربى — ترجمة النجار — ٢/١٣٢

(٥) الفهرست ٦٥ (٦) وفيات الأعيان ٢/١٧

(٧) معجم الأدباء ٣/١١

وإلى جوار هذه الأقسام تنسب إلى الخليل مجموعة من الكتب التى يبدو من أسمائها أنها تتصل بالثقافة العامة ، دون أن ترتبط بمادة محددة، ومن ذلك كتاب فى النوادر ، ذكره ابن منظور(١) . وكتاب فى الأمامة ، ذكر ابن المحسن أنه قد أعده أبو الفتح محمد ابن جعفر المراغى المتوفى سنة ٣٧١ هـ (٢) .

والذى يعنينا هنا هو كتبه النحوية ، إذ هى التى تستطيع أن تقدم صورة دقيقة لفكر الخليل .

ونلحظ — أولا — أن كتاب العوامل الذى انفرد ابن خلكان بنسبته إلى الخليل ، قد نص القفطى — صراحة — على أنه « منحول عليه » (٣) .

كما نلحظ — ثانيا — أن كتاب الجمل الذى نسبه ياقوت إلى الخليل ذكر ابن مسعدة أنه من تصانيف ابن شقير(٤) .

ويؤكد ماذكره ابن مسعدة مايسلم إليه نقد الكتاب من ضرورة نسبته إلى عصر متأخر عن الخليل وتلاميذه .

فالكتاب (٥) يبدأ بمقدمة يقول فيها المؤلف :

---

(١) لسان العرب ٢٤/٩

(٢) الذريعة ٣١٢/٢ ، ٥٢٥ ، وعنه نقل بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى ١٣٤/٢ .

(٣) انباه الرواة ٣٤٦/١ . (٤) معجم الأدباء ١١/٣

(٥) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية بعنوان : كتاب وجوه النصب تحت رقم ٣٦٦ نحو قولة ، وتقع فى سبع وستين ورقه وفى الصحيفة خمسة عشر سطرا ، ومتوسط عدد كلمات السطر تسع كلمات .

« هذا كتاب فيه جملة الإعراب، إذ كان جميع النحو فى الرفع والنصب والجر والجزم ، وقد ألفنا هذا الكتاب وذكرنا فيه جمل وجوه الرفع والنصب والجر والجزم ، وجمل الألفات واللامات والهاءات والتاءات والواوات وما يجرى من لام ألفات ، وبينا كل معنى فى بابه باحتجاج من القرآن وشواهد من الشعر ، فمن عرف هذه الوجوه بعد نظاره فيما صنفناه من مختصر النحو قبل هذا يستغنى عن كثير من كتب النحو »[١].

وهذه المقدمة الموجزة تحمل دلائل نسبة الكتاب إلى غير الخليل .

فهى — أولا — تتضمن تحديدا لموضوع الكتاب ، ومضمونه ، ومنهجه:

فموضوع الكتاب هو النحو ، أو على حسب تعبير مؤلفه (جملة الإعراب).

ومضمون الكتاب دراسة لوجوه الإعراب المختلفة من نصب ورفع وجر وجزم[٢] ، ثم دراسة بعض الصيغ والحروف ، وهى : الألفات[٣] واللامات[٤] ، والتاءات[٥] ، والواوات[٦] ، ولام ألفات [٧] ، والفاءات [٨] والنونات[٩] ، والباءات ، [١٠] والياءات ، [١١] ، ثم يختم الكتاب بفصل عن الفرق بين أم و أو [١٢].

---

(١) ورقة ١ ب (٢) تقع دراسته للنصب من ١ ب إلى ٢١ ب وللرفع من ٢١ ب إلى ٣٤ ب وللجر من ٣٤ ب إلى ٣٨ ب وللجزم من ٣٨ ب إلى ٤٦ ب

(٣) ورقة ٤٦ ب-٥٢ أ (٤) ورقة ٥٢ أ — ٥٥ ب (٥) ورقة ٥٥ ب — ٥٧ أ

(٦) ورقة ٥٧ أ-٥٩ ب (٧) ورقة ٥٩ ب-٦١ ب (٨) ورقة ٦١ ب-٦٣ ب

(٩) ورقة ٦٣ ب (١٠) ورقة ٦٤ ب (١١) ورقة ٦٥ أ

(١٢) ورقة ٦٥ ب

ومنهج المؤلف يعتمد — كما ذكر في مقدمته — على ذكر القضية ، ثم الاستدلال عليها بشواهد من القرآن والشعر ، وهو ما خضع له بالفعل في تأليفه ، إذ جرد القضايا من الخلافات والآراء ، وركز على الاحتجاج والاستدلال .

وهذا التحديد الدقيق لا نجده في عصر تلاميذ الخليل ، الذين تخلو كتبهم من المقدمات جملة .

وثانيا تنص المقدمة على أن مؤلف الكتاب قد ألف قبله مختصرا في النحو ، ولم ينسب أحد إلى الخليل تأليف هذا المختصر .

وثالثا تذكر المقدمة أن من فوائد الكتابين أن قارئهما يستغني بهما عن كثير من كتب النحو ، وهذا يعني كثرة المؤلفات النحوية ، ثم رغبة المؤلف في تبسيط هذه المؤلفات وتيسيرها ، وهو ما يؤيده بالفعل هذا الكتاب ، إذ خلا من الخلافات والاستطرادات ، واقتصر على ذكر المسائل والاستدلال عليها ، وهذا كله يخالف ما يعرف عن عصر الخليل إذ لم تكثر فيه المؤلفات ، إذا استثنينا ما يذكر عن صاحب كتاب الفيصل من مؤلفات لم يرها أحد وما يذكر عن هذا الكتاب نفسه (الفيصل) من تأثير لم يؤيده أحد (١) ، وشيء آخر يؤكد نسبة هذا الكتاب إلى غير الخليل ، وهو أن الرغبة في تيسير القواعد النحوية لم تلح على العلماء في عصر الخليل بقدر ما ألحت عليهم الرغبة العميقة في استكشاف الظواهر وصياغة القواعد .

وفوق هذه الأدلة التي تتضمنها مقدمة هذا الكتاب ، ثمة دليلان آخران ينفيان عن الخليل التأليف النحوي ، وأول هذين الدليلين منسوب إلى سيبويه ،

---

(١) انظر : مجالس العلماء ٢٦٦ .

ألصق تلاميذ الخليل به ، وأعرفهم بنشاطه ، فقد روى أبو بكر بن السرى أن سيبويه سئل : هل رأيت مع الخليل كتبا يلى عليك منها ؟ قال : لم أجد معه كتبا إلا عشرين رطلا فيها بخط دقيق : (ماسمعته من لغات العرب). وماسمعت من النحو فإملاء من قلبه[1] .

والدليل الثانى يؤيد أن السماع — لا التأليف — كان وسيلة النقل عن الخليل، إذ لما مات سيبويه قيل ليونس بن حبيب الضبى إن سيبويه ألف كتابا من ألف ورقة فى علم الخليل ، فقال يونس : ومتى سمع سيبويه من الخليل هذا كله ؟! جيئونى بكتابه ، فلما نظر فى كتابه ورأى ماحكى قال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه ، كما صدق فيما حكاه عنى[1].

ويدعم هذه الأدلة كلها صمت تلاميذ الخليل عن ذكر كتبه النحوية ، فلم ينسب اليه واحد من هؤلاء التلاميذ كتابا ، وتدل رواياتهم عنه أنه كان يعنى بشرح أفكاره فى النحو وخاصة عن طريق التلقين والتعليم ، وليس بواسطة التصنيف والتأليف ، إذ يستخدم هؤلاء التلاميذ فى ذكر أفكار الخليل كلمات مثل : وقال الخليل ، وسألته ، وزعم[2]، دون أن يضيف أحدهم إلى الخليل كتابا ، مما يوحى بأن ذلك كان سماعا ، وهو مايؤيده تصريح سيبويه السابق ، ثم ماذكره فى أحيان كثيرة فى كتابه من استخدامه لمشتقات من مادة (سأل) عند ذكر أفكار الخليل مما يقطع بوجود اتصال مباشر به دون وساطة من كتاب

---

(١) تهذيب التهذيب ٣/١٦٤

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٤٩

(٣) انظر مثلا : كتاب سيبويه ١/٢٤١،٢٠٨،٢/٤٢،٤٧ ، الإيضاح فى علل النحو ٦٥، المنصف ١/٢٥،١٥١،٢٣٦،٢/١٢٦،٣/٩ الإنصاف ٣٧٤ .

وإذا كنا نميل إلى أن الخليل لم يؤلف فى النحو كتبا ، فليس معنى ذلك أننا ننفى دور الخليل جملة فى النحو ، إذ إن الخليـــل فى الواقع كان الشخصية التى استطاعت أن تبلور اتجاهات البحث النحوى وأن تخط له مناهجه ، وهو وإن كان قد ورث شتات هذه الاتجاهات وأسس تلك المناهج ، فإنه استطاع أن يؤلف بين هذا الشتات وأن ينمى هذه الأسس ، وأن يجعل من الأصول المحدودة القاصرة خطوطا واضحة استطاعت أن تلبى حاجة المـادة المتطورة إلى المنهج العلمى الذى يتطور بها فى نفس الوقت الذى يعيد فيه تشكيلها .

١ — فإذا كان الفرض طابع بعض المسائل قبل الخليل ، فهو طابع كثير من المسائل التى أثرت عنه ، ونقلها تلاميذه ؛ ومن ذلك مايقول سيبويه « سألت الخليل عن (ذين) اسم رجل ، فقال : هو بمنزلة رجلين ولا أغيره ، لأنه لا يحتـمل الاسم أن يكون هـكذا . وسألته عن رجل سمى بـ (أولى) من قوله تعالى : (نحن أولو قوة وأولو بأس شديد) أو بـ (ذوى) فقال : أقول هذا ذوون وهذا ألون ، لأنى لم اضف ، وإنمـا ذهبت النون فى الاضافة » (١) .

ويقول أيضا : « وسألته عن (هيهاة) اسم رجل ، وهيهات . فقال : أما من قال هيهات فهى عندى بمنزلة علقاة ، والدليل على ذلك أنهم يقولون فى السكوت هيهاة . ومن قال هيهات فهى عندى كبيضات ، ونظير الفتحة فى الها الـكسرة فى التاء ، فإذا لم يكن هيهات ولا هيهاة علما لشىء فهما على حالهما لايغيران عن الفتح والـكسر ، لأنهما بمنزلة ماذكرنا مما لم يتمـكن » (٢) .

---

(١) كتاب سيبويه ٢/٤٢ .
(٢) الـكتاب ٢/٤٧ .

ويقول المازنى : « ومما ينبغى أن يكون على مذهب الخليل، والنحويون أجمعون على خلافه (مفعل) من : يئست فهو موئس إذا خففت، فكل النحويين يقولون : (يئس) يلقون حركة الهمزة عليها فيرجعونها ياء حين تحركت، ومثل ذلك : (مِفْعَل) من : وأَلت (ميئل) ، فاذا خففوا قالوا : مول ، فيردونها إلى أصلها ، ويقيسون هذا أجمع .

وينبغى أن يكون على مذهب الخليل لا تلقى عليها الحركة وتكون الهمزة بعدها بين بين، الآراء قال فى (فُوعِل) من (فَوْعَل) ، كما قال فيها من (فاعل) وأجرى يُووم من (اليوم) مجرى المدة، وجعل ياء يوقن إذا أبدلت، بمنزلة ماأبدل من الألف ، وجعل الأصل فى هذا والملحق والزائد يجرى مجرى واحداً ، وهذا خلاف الناس »[١] .

وهذه النصوص الثلاثة — وكثير غيرها[٢] — فضلا عن تأكيدها أن الفرض كان طابع كثير من المسائل النحوية والصرفية المنقولة عن الخليل ، فإنها تشير إلى حقيقة هامة أخرى ، وهى أن التقعيد والتعليل لم يعد مقصوراً على الموجود بالفعل من النصوص والظواهر اللغوية ، بل تجاوزه إلى مايفترض وجوده أيضاً، فلم يعد النحو مثلا يكتفى بإعراب (ذين) أو (أولو) أو (ذوى) أو (هيهات) وإنما يحاول — كذلك — أن يقعد لهذه الكلمات إذا فرغت من دلالتها ، وسميت بها غير مدلولاتها .

---

(١) المنصف ٢/ ٣٨

(٢) انظر : المنصف ٣/ ٩٩ وما بعدها .

٢ ـــ والواقع أن التعليل أيضا كان موجودا فى النحو قبل الخليل ، وقد ذكرنا له أمثلة من قبل ، ولكن الخليل استطاع أن يضمه فى مكانه الرفيع فى أصول البحث النحوى ، بفلسفته له وتبريره لضرورته وحثه على ملاحظته ، ثم أمكنه بعد ذلك أن يمد نطاقه ، وأن يوسع من دائرته ، فشمل الموجود والمفروض معا .

وفلسفة التعليل عند الخليل تنبع من احترام للغة يصل إلى درجة التقديس ، ومن ثم فهو لا يتصور ظاهرة من ظواهرها تصدر عن غير الحكمة ، ولذلك فإن مهمته ـ كنحوى حكيم ـ لا ينبغى أن تقتصر على الوقوف عند الظواهر بغية تقعيدها ، بل تمتد إلى ما فى الظواهر وما بينها من حكمة هدفت إليها ، وهو يفسر موقفه هذا فى إجابة له عن سؤال عن مصدر هذه العلل : أهى منقولة عن العرب أم مخترعة مبتكرة ؟ فيقول : « إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقام فى عقولها علله ، وإن لم ينقل ذلك عنها ، واعتللت أنا بما عندى أنه علة لما عللته منه ، فإن أكن أصبت العلة فهو الذى التمست ، وإن لم تكن هناك علة له فمثلى فى ذلك مثل رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء ، عجيبة النظم والأقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق ، أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة ، فكلما وقف الرجل فى الدار على شىء منها قال : إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا ، ولسبب كذا وكذا ، سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك ، فجائز أن يكون الحكيم البانى للدار فعل ذلك للعلة التى ذكرها هذا الذى دخل الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة ، إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك .

فإن سنح لنيرى علة لما علمته من النحو فى أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها »(١) .

وإذا كان التعليل قبل الخليل يقف عند حدود الملحوظ بالفعل فى المسائل الموجودة والظواهر الواقعة ، فإن تعليل الخليل يتجاوز هذا القدر المحدود إلى ما يفترض وجوده أيضا ، ثم إنه يشمل المادة اللغوية بأسرها ، سواء انتسبت إلى مستوى اللغة أو انتمت إلى اللهجات .

مثال تعليله لظواهر لهجية ماينقله سيبويه من أنه سأله عن قول بعض العرب : مذعام أول ـ بالنصب ـ فقال الخليل : « جعلوه ظرفا فى هذا الموضع ، فكأنه قال : مذ عام قبل عامك »(٢) . فالخليل يعلل ظاهرة النصب فى هذين الموضوعين، على الرغم من انتمائهما إلى نصوص لهجية ، بدليل ذكر سيبويه أنهما : « قول بعض العرب »(٣) وقوله : « وهو قليل »(٤) .

ومثال تعليل الخليل للمطرد الشائع فى اللغة ، تعليله لعدم المطابقة فى التثنية والجمع فى بعض صيغ التعجب ، نحو ، ماأحسن وجوههما ، بقوله : «لأن الاثنين جميع ، وهذا بمنزلة قول الاثنين : نحن فعلنا ، ولكنهم أرادوا أن يفرقوا بين مايكون منفردا وبين مايكون شيئا من شيء ، وقد جعلوا أيضا المفردين جمعا ، قال الله جل ثناؤه : (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على

---

(١) الإيضاح فى علل النحو (٦٥ - ٦٦)
(٢) انظر : كتاب سيبويه ٢/٤٦ .
(٣) » » »
(٤) » » »

داود ففزع منهم قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض) وقديثنون مايكون بعضا لشيء »[1] .

وهذا النص يكشف عن شيء آخر غير تمليل المطرد من الظواهر ، وهو اعتماد الخليل على التأويل ، فهو يؤول المثنى بالجمع ، ويعطى المثنى لذلك حكم الجمع .

٣ — وقد كان التأويل أيضا ظاهرة من ظواهر البحث النحوى قبل الخليل ، وقد سبق أن ذكرنا أن أبا عمرو بن العلاء قد أول بيت الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال الا مسحتا أو مجلف

ليسلم مما أخذه عليه ابن أبي إسحاق[2] ، ولكن تأويل الخليل ليس مقصورا على أمثلة مفردة ، ولايقف عند المخالف للقواعد النحوية المحددة أو المطردة ، بل يمتد منهجه فى التأويل على جبهة واسعة ، تبدأ من الصيغ وتنتهى بالتراكيب ، وتشمل فيما بين ذلك القواعد والنصوص أيضا .

أما تأويله للنصوص فإنه يتم عنده بالقول بمحذوف فيها أو زيادة ، على تمدد صور الحذف والزيادة ، مثال القول بالحذف ما نقله سيبويه فى باب ما يجوز فيه الرفع مما ينتصب فى المعرفة[3] :

« وذلك قولك : هذا عبدالله منطلق . . زعم الخليل أن رفعه يكون على وجهين ، فوجه أنك حين قلت هذا عبدالله ، أضمرت هذا أو هو ، كأنك قلت : هذا منطلق ، أوهو منطلق .

---

(١) الكتاب ٢٤١/١ .
(٢) انظر ٣ من هذا البحث ،
(٣) كتاب سيبويه ٢٥٨/١ — ٢٦٠

والوجه الآخر أن تجعلهما جميعا خبرا لهذا ، كقولك : هذا حلو حامض[1] .

ويقول في الباب نفسه : «وأما قول الأخطل : —

ولقد أبيت من الفتاة بمنزل فأبيت لا حرج ولا محروم

فزعم الخليل أن هذا ليس على إضمار أنا . . . ولكنه فيما زعم الخليل : فأبيت بمنزلة الذي يقال له لا حرج ولا محروم »[2] — فالخليل في هذين الوضعين يتصور وجود محذوف في النص ، ليتسق النص مع ما تحدد لديه من قواعد ، وهنا نلمح بذور الاتجاه النحوي إلى تأويل النصوص ، ذلك الاتجاه الذي أصبح من بعد من أهم معالم المنهج النحوي ، بحيث لم يعد البحث في النحو مقصورا على دراسة التراكيب اللغوية لاستنباط ما يحكمها من قواعد ، وإنما أصبح عمل النحاة متجها في كثير من الأحيان إلى تطبيق ما يضعون من قواعد على ما بين أيديهم من نصوص ، فاذا تجافت تلك النصوص عنها فتحوا مجالا لرفضها ، أو لتأويلها إذا لم يكن بد من قبولها .

وتأويل القواعد النحوية يتم عن طريق آخر غير الطريق الذي يسلكه تأويل النصوص ، لأن تأويل القواعد لا يضطر إليه النحاة إلا إذا وجدوا تعارضا بين القواعد ذاتها ، ولا يتم الخلاص من هذا التعارض إلا بحمل النصوص التي يبدو فيها هذا التعارض واضحا على نصوص غيرها ، ولكن النحاة لا يستطيعون القول بهذا الحل إلا بابتكار قواعد تؤيده ، وهكذا يضطر النحاة إلى الإسراف في التأويل إلى أبعد الحدود .

---

(١) كتاب سيبويه ٢٥٨/١ .
(٢) كتاب سيبويه ٢٠٩/١

ويوجد كثير من هذا فيما بين أيدينا من مرويات عن الخليل ، ومن ذلك أن سيبويه سأل الخليل « عن من عل هلا جزمت اللام ؟ فقال : لأنهم قالوا من عل فجعلوه بمنزلة المتمكن فأشبه عندهم من محال ، فلما أرادوا أن يجعل بمنزلة قبل وبعد حركوه كما حركوا أول ، فقالوا : أبدأ بهذا أول ، وكما قالوا : ياحكم أقبل — في النداء — لأنها لما كانت أسماء متمكنة كرهوا أن يجعلوها بمنزلة غير المتمكنة ، فلهذه الأسماء من التمكن ما ليس لغيرها ، فلم يجعلوها في الإسكان بمنزلة غيرها وكرهوا أن يخلوا بها . . . . »[1] .

ولكي يتضح هذا السؤال الذي وجهه سيبويه ، وتنكشف تأويلات الخليل في إجابته عليه ، ينبغي أن نضع في الاعتبار أن سيبويه قد وجه هذا السؤال للخليل بعد أن أحس تعارضا بين (من عل) وبين ما تقرره قواعده من أن الظروف المبهمة غير المتمكنة « وأشباهها لما كانت مبهمة غير متمكنة شبهت بالأصوات وبما ليس باسم ولا ظروف ، فإذا التقى في شيء منها حرفان ساكنان حركوا الآخر منها ، وإن كان الحرف الذي قبل الآخر متحركا أسكنوه ، كما قالوا : هل وبل وأجل ونعم ، وقالوا : جير ، فحركوه لئلا يسكن حرفان ، فأما ما كان غاية نحو قبل وبعد وحيث فإنهم يحركونه بالضمة[2] » .

و (عل) لا تخضع لكل هذه القواعد ، فكان أمام الخليل سبيلان فإما أن يؤول لفظ عل ، وإما أن يؤول القواعد التي أسلمت إلى هذا التعارض ، ويلحظ أن الخليل قد لجأ هنا إلى تأويل القاعدة ، ومن ثم جعل النص يتبع

---

(١) كتاب سيبويه ٢/٤٥ .
(٢) كتاب سيبويه ٢/٤٤ .

قاعدة جديدة هي إلحاق غير المتمكن بالمتمكن وجعله بمنزلته وإعطائه حكمه ، وهكذا اضطر الخليل إلى ابتكار قاعدة جديدة لا ينقسم فيها الكلام العرب إلى متمكن وغير متمكن فحسب ، بل يضيف إليهما في هذا الموضع قسما ثالثاً، وهو غير المتمكن الذي بمنزلة المتمكن ، بل وقسماً رابعا إذا اضطرته الظروف أيضاً (٢) .

وإذا فالخليل يمكن أن يعد المعبر الذي انتقل به النحو العربي إلى مرحلة لها سماتها وخصائصها ، وهذه المرحلة ليست مغايرة تماما للمراحل السابقة على الخليل ، كما أنها ليست امتداداً تلقائياً لهذه المراحل ، وإنما استمدت الكثير من فكر الخليل وعقله ، ومما استطاع أن يفتق من أصول وأن يشعب من قواعد وأن يعمق فيه من اتجاهات ، وهذا كله يؤدي بنا إلى الاعتراف بدوره الخطير في النحو ، ولكن لا ينتهي ولا يجب أن ينتهي إلى إنكار كل دور لسابقيه فيه ، فقد استفاد من الأصول التي وضعوها والاتجاهات التي ابتكروها في مجالي التقعيد والتأصيل ، وبلورها ، وحدد أبعادها ، ووضعها في مكانها من المنهج النحوي .

على أن أهم ما تركه الخليل — بعد ذلك — في النحو هو أسلوبه الخاص في نقل معلوماته وشرح أفكاره ، هذا الأسلوب الذي يعتمد على المناقشة ، والذي عمق من أثر الخليل بما أنتجه من جيل كامل من الدارسين الذين تأثروا بطريقته في التناول ومنهجه في التفكير النحوي خاصة .

---

(١) انظر : كتاب سيبويه ٢/١٤ — ١٥ .

وتأثير الخليل ليس قصرا على تلاميذه البصريين وحدهم كما يتصور كثير من النحويين ، وكما يزعم بعض المؤرخين[1] ، وربما عاد هذا الوهم فى إدراك هؤلاء وأولئك إلى تلك القضية الشائعة التى لا ترتكز على أساس علمى ، وهى قضية الاعتراف بتعدد المدارس النحوية ، وما يسلم إليه هذا الاعتراف من الإقرار بوجود فروق منهجية بينها ، وما يتبع ذلك من قصر تأثير الخليل على البصريين فلا يتجاوزهم إلى غيرهم من النحاة ، إذ مادام الخليل هو أستاذ سيبويه البصرى ، وما دام سيبويه أبرز من تأثروا بالخليل فلابد من أن يكون الخليل رأس المدرسة البصرية وحدها ، وهذا كله ناتج من خطأ فى تحديد مضمون الفروق بين الاتجاهات النحوية فيما يمكن أن يصطلح عليه — بدقة — بالتجمعات المدنية فى البحث النحوى ، إذ وجود تجمعات نحوية فى البصرة والكوفة ثم فى بغداد ومصر والأندلس لا يسلم بالضرورة إلى القول بتعدد مناهج هذه التجمعات وتباينها ، بل إن اختلاف الآراء بين أصحاب هذه الاتجاهات لا ينبغى أن يؤدى إلى الاعتراف بتنوع مناهجها وتمايزها ، إذ من الممكن أن يكون هذا الاختلاف ناشئا عن تنوع أساليب التطبيق لنظرية واحدة ، كما يمكن أن تعود تلك الفروق بين العلماء إلى نوع من التقارب الفكرى ، أو إلى اختلاف فى المادة المحصلة ، دون أن يكون للمنهج كبير تأثير فيما بين النحاة من اتفاق وما ينشب بينهم من خلاف .

وفى تصورنا أن تأثير الخليل يتجاوز البصريين وحدهم إلى النحاة جميعا ،

---

(١) انظر مثلا السيرافى : أخبار النحويين البصريين ٣٠-٣١ ، ابن الأنبارى : نزهة الألباء ٥٤ — ٥٩ ، الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ٤٣ - ٤٧ ففى المصادر المذكورة — كما فى كثير غيرها — يعالج الخليل على أنه من أعلام مدرسة البصرة .

لأنه تأثير فى المنهج، ومن الممكن لذلك أن يحدث اختلاف بين الخليل وتلاميذه فى كثير من الجزئيات ، بل أن يصل هذا الاختلاف إلى صورة التناقض ، دون أن يشكل ذلك انفصاما فى المنهج النحوى ، الذى سار عليه الخليل ، ثم اتبعه من بعده تلاميذه وغير تلاميذه من النحويين

وحسبنا أن نضرب هنا مثلا واحداً يصور تغير أسلوب الكسائى شيخ الكوفيين بعد أن اتصل بالبصريين ، أو بتعبير أدق بعد أن ثقف نفسه بالمنهج النحوى الذى أخذه عن الخليل مباشرة[1] ، ثم عن سيبويه[2] ؛ فقد حكى « الأصمعى عن عيسى بن عمر والكسائى أنه جمعهما الحسن بن قحطبة أول ما دخل بغداد ، قال الكسائى : فسألته عن همك ما أهمك ؟ فذهب يقول : يجوز كذا ، ويجوز كذا ، قال : فقلت له : عافاك الله ، إنما أريد كلام العرب ولم تجىء بكلام العرب »[3] ، فالكسائى هنا رجل يهتم بالمروى من اللغة لا يرضيه تغييره مهما حاول أحد تخريجه لتصحيحه ، ولكن الكسائى لا يلبث أن يتغير إذ يجتمع مع الأصمعى عند الرشيد ، فينشد الكسائى لأفنون التغلبى :

لو أننى كنت من عاد ومن إرم — غذى سخل ولقمان ومن جدن
لمـا فدوا بأخيهم من مهولة — أخا السكون ولا جازوا على السنن
أنى جزوا عامرا سوءى بفعلهم — أم كيف يجزوننى السوءى من الحسن
أم كيف ينفع ما تعطى العلوق به — رئمان أنف إذا ما ضن باللبن

فاعترض الأصمعى على رواية الكسائى بالرفع ، وخاطبه مصححاً : رئمان

---

(١) انظر : نزهة الألباء ٨٢ ، أنباه الرواة ٢/٢٥٨ ، تاريخ بغداد ٤٠٥/١١ معجم الأدباء ١٦٩/١٣ .

(٢) انظر : أنباه الرواة ٢/٢٧٥ طبقات الزبيدى ٧٤ .

(٣) مجالس أبى مسلم ٨٤ — ٨٥ .

أنف . فأقبل عليه الكسائى قائلا : اسكت ، ما أنت وهذا ؟ ! يجوز ريحانُ وريحانَ وريحانٍ ، بالرفع والنصب والخفض ، أما الرفع فعلى الرد على ما لأنها فى موضع رفع بينفع، فيصير التقدير : أم كيف ينفع ريحانه أنف ، والنصب بتعطى ، والخفض على الرد على الهاء التى فى به »(١) ويفسر ذلك المبرد بقوله : « الهاء مكنى ، ولا يرد الظاهر على المكنى ؛ وجاز رده هنا لتقدم ذكره اللبن لأن العلوق قد تقدمت ، وقد علم أن لها لبنا فصار المكنى لذلك كالظاهر ، وبه كناية عن اللبن »(٢). فالكسائى هنا ليس الكسائى هنالك ؛ إنه يرفض هنا أن يعنى بصحة الرواية ما دام يجد لنطقه فى قواعد العربية ما يصححه ، حتى إذا حاول الأصمعى الراوية أن ينبهه إلى خطئه فى الرواية رفض مستنداً إلى تأويله ، فانعكس بذلك موقفه الذى سبق مع عيسى بن عمر .

علينا إذاً أن نبدأ فى دراسة مناهج البحث النحوى دون أن نتخذ سلفا موقفاً يسلم بالتغير المنهجى بين كل مجموعة نحوية وأخرى ، بل يجب أن نبدأ من دراسة الظواهر اللغوية التى عالجها النحاة ، ثم تحليل قواعدهم التى وضعوها، وأصولهم التى اتبعوها ، وبهذا نكون قد وقفنا على مناهج البحث فى النحو العربى ، وهو المقدمة الضرورية لتقويم هذه المناهج ، بما يفرضه هذا التقويم من ذكر ما لها من قيمة ، وتعديل ما بها من أخطاء . ولكن علينا قبل ذلك أن

---

(١) انظر : خزانة الأدب ٤/٤٥٦ — ٤٥٨ ، الأشباه والنظائر ٣/٢٢٤ — ٢٢٥ ، طبقات الزبيدى ١٤٠ ، معجم الأدباء ١٣/١٨٣ ، مجالس العلماء ٤٢ ، أمالى الزجاجى ٥٠ — ٥١ والأبيات موجودة بتغير فى الرواية يسير فى المصادر المذكورة، وتعليل جواز الوجوه الثلاثة فى الإعراب منسوب فى مجالس أبى مسلم للمبرد لا للكسائى .

(٢) مجالس أبى مسلم ٨٥ ، مجالس العلماء ٤٣ .

تحدد ظواهر هذه المرحلة التي انتهت بنا إلى بلورة معالم المنهج ، وحددت إلى حد بعيد خصائصه .

أولا : استطاع البحث النحوي في هذه المرحلة أن يلحظ إلى جوار ظاهرة الإعراب ظاهرتين أخريين ، الأولى ظاهرة الترتيب بين أجزاء التركيب اللغوي ، كما يتضح من الإشارات التاريخية المختلفة[1] ، والثانية ظاهرة التطابق بين أجزاء الكلام ، وإدراك وجود أنواع من المطابقات بين الصيغ إذا فقدها التركيب اللغوي فقد ما يهدف إليه من الإفهام والدلالة ، في مجالي نقل الأفكار أو تأكيد العلاقات الاجتماعية والتعبير عنها ، وإدراك النحاة لهذه الظاهرة واضح من أسماء الكتب التي ألفها النحويون في هذه الفترة ، ومن بينها كتب في الجمع والإفراد[2].

ثانيا : لم يقف النحاة في هذه المرحلة عند التقعيد للظواهر اللغوية ، وإنما امتدت جهودهم لتفسير هذه الظواهر أو بعضها ، وكان ذلك نقطة البداية لاتصال البحث النحوي وتوفره على خلق نظريات تقعيدية وتفسيرية معاً ، فمثلا في ظاهرة الإعراب انتقل البحث من مجال التقنين الذي يهدف أساساً إلى تحديد صور التصرف الإعرابي ، إلى دراسة الصلة بين الحركة الإعرابية والمعنى ، بحيث تصور النحاة أنه لا بد من وجود علاقة ما تربط بين الحركة المعينة وبين مدلول الكلمة المتحركة بهذه الحركة ، ليس وظيفيا فحسب ، بل دلاليا أيضا .

ثالثا : ظل النحاة يخلطون في مستويات المادة اللغوية بين الفصحى واللهجات ، ويجعلون من كل منها مصدرا مقبول المادة للتقنين لنحو اللغة ،

---

(١) انظر : البيان والتبيين ١/١٦١ ، ١٦٦ .
(٢) طبقات النحويين واللغويين ١٤٥ .

وهكذا كانت النصوص المنسوبة إلى مستوى اللهجات تغير من قواعد هذا النحو ، ومما يدل على استقرار هذا الموقف من النحاة ماحدث بين عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء[١] ، ثم ماحدث في المناظرة المشهورة بين سيبويه والكسائي[٢] .

فالمناظرة الأولى تثبت نتيجتين هامتين : أولاهما أن القواعد التي انتهى إليها أبو عمرو قد أقامها على مستويات لغوية مختلفة ولم يبنها على مستوى واحد منها ، والثانية أن هذا الخلط في استقراء المادة اللغوية ليس موقفا فرديا، بل يعكس موقف النحاة في هذا المجال — إذا استثنينا موقف عبد الله بن أبي إسحاق — وقد تقرر ذلك فيما بعد في علم أصول النحو وعدت « اللغات على اختلافها حجة »[٣] كما يقول ابن جني في خصائصه ، وأصبح « كل ما كان لغة لقبيلة قيس عليه» كما يؤكد أبو حيان[٤]. ومما يدل على أن هذا الموقف من أبي عمرو ليس موقفا فرديا — فوق ما ذكرنا — اقتناع عيسى بن عمر به ، هذا الاقتناع الذي دل عليه تقديمه خاءه هدية له وقوله له « بهذا والله فقت الناس »أو« سدت الناس » [٥] .

---

(١) انظر : الأشباه والنظائر ٣/٢٤ — ٢٥ ، طبقات النحويين واللغويين ٣٨ — ٣٩ ، أمالي القالي ٣/٣٩ ، المعرب للجواليقي ٢١٠ ، مجالس العلماء ١ — ٤ أمالي الزجاجي ٢٤١ -٢٤٣ ، شرح نهج البلاغة ٤/٤٢٤ - ٤٢٦ .

(٢) انظر : الأشباه والنظائر ٣/١٥-١٦ ، مجالس العلماء ٨ - ١٠ ، معجم الأدباء ١٣/١٨٥ - ١٨٨ ، ١٦/١١٩ - ١٢٠ ، أمالي الزجاجي ٢٣٩ - ٢٤١ . انباه الرواة ٢/٢٥٦ ، الإنصاف ٤١٢ - ٤١٣ ، إعلان التوبيخ ٣٤ ، أمالي ابن الشجرى ١/٢٢٩ .

(٣) الخصائص ٢/١٠

(٤) المزهر ١/٢٥٨

(٥) الأشباه والنظائر ٣/٢٥ ، مجالس العلماء ٤ ، أمالي الزجاجي ٢٤٣، المعرب ٩ ، ٢١٠ ، شرح نهج البلاغة ١/٤٢٦ ومابعدها، المزهر ٢/٢٧٧-٢٧٨ ، أمالي القالي ٣/٣٩ ومابعدها .

ويؤكد هاتين النتيجتين السابقتين ما حدث بين سيبويه والكسائي في مناظرتهما[1] . إذ ارتضيا بعد أن اختلفا في مسائل أن يحكما بعض الأعراب ، ونص الكسائي هنا له أهمية خاصة إذ قال ليحيى بن خالد « هذه العرب ببابك قد اجتمعت من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع ، هم فصحاء الناس ، وقد قنع بهم أهل المصرين ، وسمع أهل الكوفة والبصرة منهم »[2] فهذا تصريح صريح في أن علماء النحو في البصرة والكوفة قد قنعوا بالسماع من العرب على اختلاف لهجاتهم وتعدد مستوياتهم .

رابعا : لم يعد البحث النحوى مقصورا على البصرة وحدها ، بل استطاع أن يتخذ له مراكز جديدة ، كان في مقدمتها الكوفة ، ولقد نتج عن مشاركة الكوفة للبصرة نوع من التسابق العلمى أخصب الفكر النحوى ، وأمد دراساته بمزيد من القوى المثقفة التي تمكنت من أن تكسو ذلك الهيكل المجرد الذى ورثته حتى أصبح بناء شامخا رائما ، على أننا نسجل — بادىء ذى بدء — أن تعدد مراكز البحث النحوى لا يعنى بالضرورة تعدد المدارس بمعناها العلمى المنهجى ، ومما يؤيد ذلك : أولا ما نلحظه من أن انتقال المنهج النحوى من البصرة إلى الكوفة كان بوساطة شيبان بن عبدالرحمن التميمى ثم بوساطة الكسائى نفسه ، الذى لم يكتف بالانتقاء غير المباشر بالمنهج البصرى بل انتقل إلى البصرة ليأخذ

---

(١) انظر : الأشباه والنظائر ٣/١٥-١٦ ، إعلان التوبيخ ٣٤ ، أمالى ابن الشجرى ١/٢٢٩ ، أنباه الرواة ٢/٢٥٦ - الإنصاف ٤١٢-٤١٣ ، أمالى الزجاجى ٢٣٩ - ٢٤١ ، معجم الأدباء ١٣/١٨٥ - ١٨٨ ، ١٦/١١٩ - ١٢٠ .

(٢) المصادر السابقة .

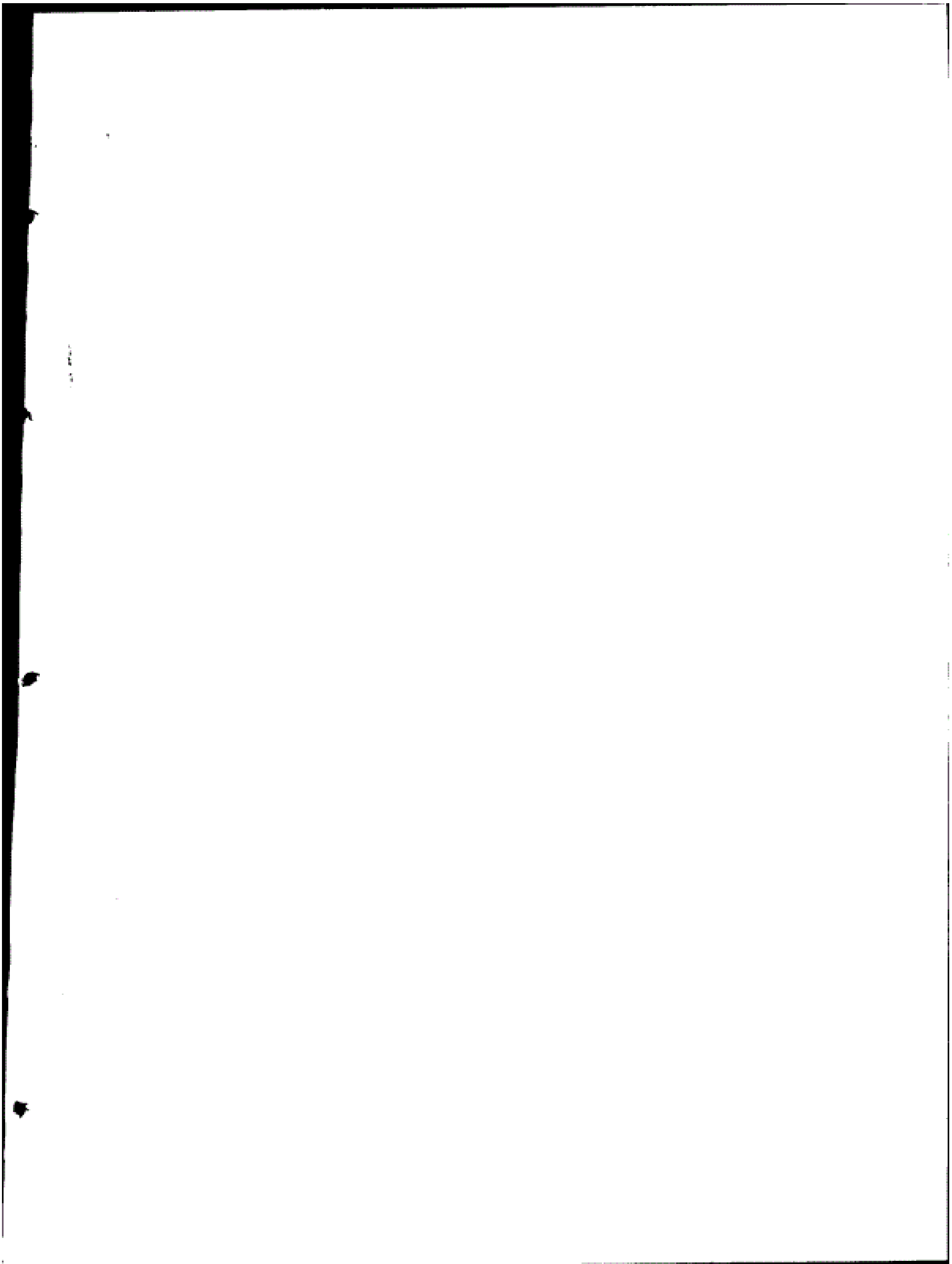
عن أعلامها بصورة مباشرة[1] . ثم مانلحظه أيضا من أن انتقال الأفكار النحوية إلى مصر والأندلس قد أسهم فيه إلى حد كبير مجموعة من تلاميذ الكسائى ، ومنهم أبو الحسن الأعز الذى يعد فى الطبقة الأولى من النحاة المصريين ، والذى اشترك بدوره فى نقل الأفكار النحوية إلى الأندلس ، بتعليمه بعض التلاميذ الأندلسيين فى وقت مبكر[2] ، ومنهم كذلك جودى بن عثمان النحوى الأندلسى ، الذى انتقل إلى المشرق ليأخذ عن أعلامه ، ثم كان أول من أدخل بعض كتب الكسائى إلى الأندلس ، وكان ـ فوق ذلك ـ من الرعيل الأول من النحاة الأندلسيين الذين وضعوا فى النحو مؤلفات[3] .

---

(١) انظر : نزهة الألبا ٨٣ ، انباه الرواة ٢/٢٥٨ ، تاريخ بغداد ١١/٤٠٥ ، معجم الأدباء ١٣/١٦٩ ، بغية الوعاة ٣٣٦ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٣ .

(٣) طبقات النحويين واللغويين ٢٧٨ .



الخـــاتمة

نحسب أننا قد انتهينا الآن ـ بفضل المنهج الذى اتبعناه لإعادة تركيب الحقائق التاريخية فى ضوء الظروف الموضوعية ـ إلى موقف يمكن أن يكون بداية صحيحة لدراسة تاريخ النحو العربى دراسة علميه ، بما تتطلب الدراسة العلمية من تفسير للظروف وتحليل للدوافع، أكثر من الاقتصار على مجرد رصد الأحداث وتسجيل الوقائع ، ذلك أن رصد الأحداث وتسجيل الظواهر لايجدى كثيرا فى مجال الفكر الإنسانى ، إذ لا يقدم إضافة جادة إليه ، ولا يساعد على إدراك العوامل ذات التأثير فيه ، فضلا عن أن يسهم فى تطويرها ، ومن ثم فإنه لاغنى فى تاريخ الفكر الإنسانى عن التحليل والتركيب ، ولا غنى فى التحليل والتركيب عن الأخذ بمعطيات المنهجين العلميين اللذين أشرنا إليهما فى التمهيد لهذه الدراسة، وهما المنهج الاستردادى والمنهج التجريبى ، تلك المعطيات التى تفرض على الباحث الالتزام بمبادىء ثلاثة

الأول : التلاحم بين الإنسان والمجتمع والطبيعة فى كافة مجالات النشاط الإنسانى، حتى فى تلك الألوان الفكريه التى تبدو فى النظرة العابرة بريئة من أى ارتباط اجتماعى نائية عن أى تأثير طبيعى ، ولقد رأينا نموذجاً لهذا التلاحم فى دراستنا لنشأة التفكير النحوى ، تلك النشأة التى تبدو للكثير من الدارسين عملا فكريا مجرداً عن العلاقات الاجتماعية والطبيعية ، وعلى العكس من ذلك تماماً ، إذ كان للظروف الاجتماعية والطبيعية دورها البارز فى تحديد كل من « الزمان » « والمكان » اللذين نشأت فيهما المحاولات الأولى للتفكير النحوى .

الثانى : كلية الوجود الانسانى ، بحيث يستحيل معها فصم خبرات الإنسان ، وتقسيم مواقفه وفقاً لذلك إلى موقف مجدد فى ناحية ومحافظ فى أخرى ، ذلك أن الخبرات الإنسانية على تنوعها تسهم فى تشكيل أبعاد الوجود الانسانى ، والانسان يتعامل من خلال خبراته كلها وليس باستبعاد بعضها ، وحتى لو أراد التعامل من خلال خبرة بعينها فإنه لا يملك ذلك ولا يستطيعه ، ومن ثم فإن الأكثر أهمية ليس أشكال الخبرات وإنما دلالاتها ، ولا يتم إدراك هذه الدلالات بوضوح إلا بعد استيعاب كافة الأشكال . ولعلنا قد لاحظنا كيف أن تطبيق هذا المبدأ أسلمنا إلى الاعتداد بشخصية أبى الأسود ، فى مجال المقارنة بينه وبين الشخصيات الأخرى التى نسب إليها المؤرخون زيادة التفكير النحوى .

الثالث : مراعاة التطور الضرورى بين الأجيال ، وبخاصة فى مراحل البحث الأول فى أى مجال علمى ، ومن ثم فإن إجراء أية مقارنة بين مرحلتين مختلفتين يعد من قبيل المقارنة بين النتائج مع إغفال المقدمات . وإذا كانت الأفكار تبدو فى بعض المراحل جديدة غير معروفة ، فإن الحقيقة التى لا مفر من الاعتراف بها أنها ليست سوى نتاج تكييف الفكر المعروف مع الحاجات الداعية إلى تطويره . وفى الفكر ، كما فى الواقع ، لا يوجد شىء من لا شىء ، فإن القدرة على الخلق من عدم قصر على الخالق جل جلاله دون سواه .

بتطبيق هذه المبادىء أرجو أن أكون قد ألقيت ضوءاً كافياً على قرن

من الزمـــان طال الحديث فيه وعنه ، وكل حديث فيه لا يساعد كثيرا فى استكناه حقائقه ، وكل حديث عنه لم يقدم سوى مزيد من الظلال .

وإنى لأرجو أن تكون هذه الدراسة بداية رحلتنا معا ، حيث سأحاول — بعون الله وقدرته — أن نستعيد معاً ما كان من أحداث وعلاقات كان لها أثرها فى تشكيل النحو العربى : مادة ومنهجا ، ليس على أساس من النصوص المكتوبة وحدها ، وإنما معها وفيها باستخدام هذا المنهج فى التحليل والتركيب بغية الوصول إلى حقيقة ما كان ، وما ينبغى أيضا أن يكون .

فهـــرس الأعلام

فهرست

الطوائف والجماعات والأماكن

فهرس المراجع

١ ـــ أبو زكريا الفراء ومذهبه فى النحو واللغه .
د. أحمد مكى الأنصارى ، ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

٢ ـــ أبو على الفارسى
د. عبد الفتاح شلبى ، ط نهضة مصر ١٣٧٧ هـ .

٣ ـــ أخبار النحويين البصريين للسيرافى
تحقيق طه الزينى وعبد المنعم خفاجى ، ط١ مصطفى الحلبى ١٩٥٥م

٤ ـــ الأخبار المروية فى سبب وضع العربيه للسيوطى .
مخطوط ، دار الكتب المصرية رقم ١٢٣ م مجاميع .

٥ ـــ أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى .
نشر السيد محمد رشيد رضا ، دار المنار .

٦ ـــ الأشباه والنظائر فى النحو للسيوطى .
ط . دائرة المعارف النظاميه بحيدر أباد ١٣١٦ هـ

٧ ـــ الإصابة فى تمييز الصحابة . لابن حجر العسقلانى .
ط . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٣هـ .

٨ ـــ إصلاح المنطق لابن السكيت
تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٣٦٨هـ .

٩ ـــ الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للسخاوى
دمشق ١٣٤٩ هـ

١٠ ـــ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .
(أ) ط دار الكتب المصرية .
(ب) ط بولاق .
(جـ) ط ساسى .
بدون تحديد = ط دار الكتب المصرية .

١١ — أمالى الزجاجى
تحقيق عبد السلام هارون ، ط ١ ، المؤسسة العربية الحديثة .

١٢ — أمالى السيد المرتضى .
تحقيق أحمد بن الأمين الشنقيطى ط١ ، ١٩٠٧ م .

١٣ — الأمالى الشجرية .
ط دائرة المعارف النظامية بحيدر أباد ١٣٤٩ هـ .

١٤ — الامتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى
تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ط٢ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٣

١٥ — أنباه الرواه للقفطى
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ١ ، دار الكتب المصرية .

١٦ — الانساب للسمعانى
ط ليدن ١٩١٢

١٧ — الانصاف فى مسائل الخلاف لابن الانبارى
تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد ط ٢ — ١٩٥٣ مطبعة محمد على صبيح

١٨ — الايضاح فى علل النحو للزجاجى
تحقيق مازن المبارك ، دار العروبة بالقاهرة ١٩٥٩ .

١٩ — البداية والنهاية لابن كثير
مطبعة السعادة بمصر ١٢٥١ هـ .

٢٠ — البصائر والذخائر لابى حيان التوحيدى
تحقيق احمد أمين والسيد احمد صقر ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٣ .

٢١ — بغية الوعاة للسيوطى
ط ١ ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ هـ .

٢٢ — البيان والتبيين للجاحظ
تحقيق عبد السلام هارون ط ١ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٩ هـ .

٢٣ — تاج العروس للزبيدى
ط المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ .

٢٤ — تاريخ آداب العرب
مصطفى صادق الرافعى حـ١ ، حـ٢ ط٢ ، حـ٣ ط١ ، ط الاستقامة ١٩٤٠ .

٢٥ — تاريخ الأدب العربى لبروكلمان
ترجمة عبد الحليم النجار ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ .

٢٦ — تاريخ بغداد للخطيب
ط١ ، مطبعة الاستقامة بمصر ١٩٣١ .

٢٧ — تاريخ الخلفاء للسيوطى
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط١ التجارية الكبرى ١٩٥٢ .

٢٨ — تاريخ العرب العام للمستشرق سيديو
ترجمة عادل زعيتر ، عيسى البابى الحلبى ١٩٤٨ .

٢٩ — التاريخ الكبير لابن عساكر
مطبعة روضة الشام ١٣٣٢ هـ .

٣٠ — تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر

٣١ — تلخيص أخبار النحويين واللغويين لابن مكتوم
مخطوط ، بدار الكتب المصرية رقم ٢٠٦٩ تاريخ .

٣٢ — التنبيهات على أغاليط الرواة لعلى بن حمزة البصرى
مخطوط ، بدار الكتب المصرية رقم ٢٢ لغة ش .

٣٣ — تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى
ط١ ، دائرة المعارف النظامية بحيدر أباد ١٣٢٥ هـ .

٣٤ — تهذيب اللغة للأزهرى
مصور بمكتبة مجمع اللغة العربية بمصر ، رقم ٦٢٦ لغة .

٣٥ ــ جمع الجواهر فى الملح والنوادر للحصرى
تحقيق على البجاوى ط ١ ، ١٩٥٣ ، عيسى البابى الحلبى .

٣٦ ــ جمهرة أنساب العرب لابن حزم
تحقيق بروفنسال ، ط دار المعارف بمصر ١٩٤٨ .

٣٧ ــ الحذف والتقدير فى النحو العربى
د . على أبو المكارم ، (تحت الطبع) .

٣٨ ــ الحيوان للجاحظ
تحقيق عبد السلام هارون ط١ ، مصطفى البابى الحلبى .

٣٩ ــ خزانة الأدب للبغدادى .
ط بولاق .

٤٠ ــ الخصائص لابن جنى
تحقيق محمد على النجار ط ١ ، دار الكتب المصرية .

٤١ ــ دائرة المعارف الاسلامية .
الترجمة العربيه .

٤٢ ــ دائرة معارف البستانى .
الطبعه الأولى .

٤٣ ــ داعى الفلاح لمخبآت الاقتراح
مخطوط بالمكتبة الأزهرية بالقاهرة .

٤٤ ــ دراسات فى حضارة الاسلام لجب
ترجمة د . احسان عباس وآخرين ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٤ .

٤٥ ــ دلالة الألفاظ
د . ابراهيم أنيس ، ط ١ ، الأنجلو المصرية ١٩٥٨ .

٤٦ - ديوان أبى الأسود الدؤلى
تحقيق عبد الكريم الدجيلى ط١، بغداد ١٩٥٤ .
٤٧ - ديوان الفرزدق بشرح الصاوى
ط ١٣٥٤ هـ .
٤٨ - الذريعة إلى مكارم الشريعة ، للراغب الأصفهانى
ط١ مطبعة الوطن ١٢٩٩ هـ .
٤٩ - رسالة الغفران للمعرى
تحقيق د . عائشة عبد الرحمن ط٢، دار المعارف بمصر
٥٠ - روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للآلوسى .
إدارة الطباعة المنيرية .
٥١ - سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون لابن نباته المصرى
ط ١سنة ١٩٥٧ . مصطفى البابى الحلبى.
٥٢ - سمط اللآلىء للبكرى
تحقيق عبد العزيز الميمنى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ .
٥٣ - السنن النفسية لتطور الأمم لجوستاف لوبون .
ترجمة عادل زعيتر ، دار المعارف بمصر ١٩٥٠ .
٥٤ — سيبويه
أحمد أحمد بدوى ، بحث بمجلة دار العلوم السنة ١٤ العدد الأول .
٥٥ - سيبويه إمام النحاة .
على النجدى ناصف ط١ ، نهضة مصر بالفجالة
٥٦ - شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى
مطبعة القدسى ١٣٥٠ .
٥٧ - شرح كتاب سيبويه للسيرافى
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٣٧ نحو :

٥٨ — شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لابى أحمد العسكرى
تحقيق عبد العزيز احمد ، ط ١ . مصطفى البابى الحلبى ١٩٦٣
٥٩ - شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد
أ - بدون تحقيق = ط الحلبى ١٣٢٩
ب - بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .
بدون تحديد = أ
٦٠ - الشعر والشعراء لابن قتيبة
تحقيق مصطفى السقا ط التجارية بمصر ١٩٣٢ .
٦١ - الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها لابن فارس
المطبعة السلفيه بالقاهرة ١٩١٠
٦٢ - ضحى الاسلام
د أحمد أمين ، حـ١ سنة ١٩٣٤ ، حـ٢ ط٢ سنة ١٩٣٥ ، حـ٣ ط٦ سنة ١٩٥٦ .
٦٣ - طبقات الشافعية الكبرى للسبكى
ط١ ، المطبعة الحسينية المصرية .
٦٤ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام
تحقيق محمود محمد شاكر ط المعارف ، بدون تحقيق ط السعادة .
— طبقات القراء = غاية النهاية
٦٥ - الطبقات الكبرى لابن سعد
ط دار بيروت ودار صادر ، بيروت ١٩٥٧
٦٦ - طبقات النحاة واللغويين لابن قاضى شهبة
مصور بدار الكتب المصرية رقم ١١٩٨٨ ج .
٦٧ - طبقات النحو بين واللغويين للزبيدى
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط الخانجى ١٩٥٤
٦٨ - الظواهر اللغوية فى التراث النحوى
د - على أبو المكارم . القاهرة الحديثة للطباعة ١٩٦٨
٦٩ - العربية : دراسات فى اللغة واللهجات والاساليب ، ليوهان فك
ترجمة د عبد الحليم النجار ، ط١ ، دار الكتاب العربى ١٩٥١

٧٠ — عيون الأخبار لابن قتيبة .
ط ، دار الكتب المصرية .

٧١ — غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى .
نشر بر جستراسر ، مطبعة السعادة ١٣٥١ هـ .

٧٢ — الفاضل للمبرد
تحقيق عبد العزيز الميمنى ط ١ ، دار الكتب المصرية ١٩٥٦ .

٧٣ — فتوح البلدان للبلاذرى .
تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، ط النهضة المصرية .

٧٤ — الفهرست لابن النديم
ط التجارية الكبرى ١٣٤٨ هـ

٧٥ — فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط ١ ، النهضة المصرية ١٩٥١ .

٧٦ — القاموس المحيط للفيروز بادى
ط ٥ ، التجاريه الكبرى .

٧٧ — الكامل فى اللغة والأدب للمبرد .
ط التجارية الكبرى ١٣٦٥ م .

٧٨ — الكامل فى التاريخ لابن الأثير . (بدون تحديد) .

٧٩ — كتاب سيبويه .
ا بدون تحديد = ط بولاق
ب بتحقيق عبد السلام هارون .
— كتاب العوامل = كتاب وجوه النصب .

٨٠ — كتاب وجوه النصب المنسوب إلى الخليل
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٦٦ نحو قولة .

٨١ — لسان العرب لابن منظور .
ط بولاق .

٨٢ — لطائف المعارف للثعالبي

تحقيق إبراهيم الابياري وحسن كامل الصيرفي ط ١ عيسى البابي الحلبي

٨٣ — اللغة في المجتمع م . م . لويس

ترجمة د . تمام حسان ط ١ عيسى البابي الحلبي ١٩٥٩

٨٤ — اللغة والنحو

د . حسن عون ط ١ ، ١٩٥٢ .

٨٥ — لمع الأدلة في أصول النحو لابن الأنباري

تحقيق سعيد الأفغاني ، الجامعة السورية ١٩٥٧ .

٨٦ — مجالس أبي مسلم

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٧٧ أدب ش .

٨٧ — مجالس العلماء للزجاجي

تحقيق عبدالسلام هارون ، الكويت ١٩٦٢ .

٨٨ — مدرسة البصرة النحوية

د . عبد الرحمن السيد ، مخطوطة بمكتبة كلية دار العلوم .

٨٩ — مجمع الأمثال للميداني .

نشر محمد محي الدين عبدالحميد ، ط ٢ ، التجارية الكبرى ١٩٥٩ .

٩٠ — المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا

ط الحسينية بالقاهرة ١٣٢٥ هـ

٩١ — مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو .

د . مهدى المخزومي ، ط ٢ ، مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٥٨ .

٩٢ — مذاهب التفسير الاسلامي لجولد تسيهر

ترجمة د . عبدالحليم النجار ، الخانجي ١٩٥٥ .

٩٣ — مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي

ط ١ ، دائرة المعارف النظامية بحيدر أباد ١٣٢٧ هـ .

٩٤ — مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، نهضة مصر ١٩٥٥
٩٥ — المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى
تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، ط٣ مصطفى البابى الحلبى
٩٦ — المعارف لابن قتيبة
ط مصر ١٣٠٠ هـ
٩٧ — معجم الأدباء لياقوت
نشر أحمد فريد رفاعى ، ط دار المأمون
٩٨ — معجم البلدان لياقوت
ط١ ، نشر الخانجى والجمال ، السعادة بمصر ١٩٠٦
٩٩ — معجم الشعراء للمرزبانى
تحقيق عبد الستار فراج ، عيسى البابى الحلبى ١٩٦٠
١٠٠ — المعرب للجواليقى
تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار الكتب المصرية ١٣٦١ هـ.
١٠١ — المقابسات لأبى حيان التوحيدى
تحقيق حسن السندوبى ط ١ ، ١٩٢٩
١٠٢ — مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الاصفهانى
تحقيق السيد أحمد صقر ، ط١ ، عيسى الحلبى ١٩٤٩
١٠٣ — ملاحظات نحو تعريف الثقافة ، ت.س. اليوت
ترجمة د شكرى عياد ، المؤسسة المصرية العامة
١٠٤ — مناهج البحث عند النحاة العرب
د . على أبو المكارم ، القاهرة الحديثة للطباعة
١٠٥ — مناهج البحث فى اللغة
د . تمام حسان ط ١ ، الانجلو المصرية ١٩٥٥

١٠٦ — المنصف شرح التصريف لابن جنى
تحقيق ابراهيم مصطفى وعبدالله أمين ط ١ ، مصطفى الحلبى
١٠٧ — المنهج الاسلامى : خصائصه وغاياته
د . على أبو المكارم القاهرة الحديثة للطباعة (تحت الطبع)
١٠٨ — الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء للمرزبانى ط السلفية ١٣٤٣ هـ
١٠٩ — ميزان الإعتدال للذهبى
تحقيق على البجاوى ط ١ مصطفى الحلبى
١١٠ — النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ط دار الكتب المصرية
١١١ — نزهه الالباب لابن الانبارى طبع حجر ١٠٩٤ هـ
١١٢ — نشأة النحو
عبد الوهاب حموده . بحث بمجلة كلية الآداب . المجلد ١٣ . حـ ١
١١٣ — النقائض = النقائض بين جرير والفرزدق
ا ـ ط ليدن ١٩٠٥ ب ـ ط مصر ١٩٠٥ حـ ـ ط الصاوى ١٩٣٥
بدون تحديد = ا
١١٤ — نقائض جرير والأخطل ط ليسون ١٩٠٥
١١٥ — نكت الهميان فى نكت العميان للصفدى ط ١٩١٠
١١٦ — الوسائل إلى مسامرة الأوائل للسيوطى.
تحقيق د . أسعد طلس بغداد ١٩٥١
١١٧ — وفيات الأعيان لابن خلكان .
تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ط ٦ ، النهضة المصرية ١٩٤٨ .

فهرس الموضوعات

المقـــدمة

الخاتمة

الفهـــارس

تصويب الأخطاء

ص	س	الخطأ	الصواب
٤٩	١٢	متاثرة	متأثرة
٥١	١	ثمانينيات	ثمانيات
٥٦	٢	٣٠٠ عام	١٣٠٠ عام
٥	١٢	للتعبير	التعبير
٧٢	١١	الظواهرة	الظاهرة
٧٣	١٨	فاعتبر مايقدم من	فاعتبر
٧٨	٥	المعروف	المعرف
٨٦	٥	والاسهام	عن الاسهام
٩٤	٧	ينكر	يستنكر
٩٥	٩	أبو عمرو	أبا عمرو
١٠١	١١	الرولى	الرواسى